

الباب الأول

عصر ابن نباتة وبيئته

لن نستطيع فهم الشاعر، ما لم نعرض بالتفصيل للدراسة عصره، وما لم نجعل أهم ما فيه من أحداث جسم توضح لنا بعض الجوانب الهامة من أدبه وسيرته، ولا سيما أنه يمثل أصدق تمثيل هذه الفترة التي كان فيها المماليك يحكمون أكثر البلاد العربية .

عاش ابن نباتة في عصر السلاطين المماليك ، لكنه في حقيقة الأمر كان يقضى أجمل أيامه في ظلال الملوك الأيوبيين في مملكة حماة وفي سائر بلاد الشام . فلكى نفهم أمير أدباء عصره لابد لنا من دراسة عصرين معاً: أولهما عصر سلاطين المماليك في مصر لأنه عاش فيه ومات ، وثانيهما عصر سلاطين الأيوبيين في الشام لأنه انصرف في معظم شعره لمدح أواخر ملوكهم في حماة القاهرة .

نتناول في دراستنا عصر الشاعر ابن نباتة، فنوضح الحياة السياسية، وما فيها من أحداث جسم، والحياة الاجتماعية ، بمختلف مظاهرها ، والحياة الفكرية في شتى مناحيها الثقافية والعلمية .

الفصل الأول

الحياة السياسية

القسم الأول

الأيوبيون

ينتسب الأيوبيون إلى شاذى بن مروان^(١) ، وقد اختلف المؤرخون في أصلهم فذكر المؤرخ الموصلى عز الدين بن الأثير أن أصلهم من الأكراد الروادية وهم فخذ من الهديانية، وذكر أبو شامة المقدسى بدء أمرهم فقال : « كان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب ، وهو أكبر أبناء شاذى ، من بلدة (دوين) ، وهى بلدة من آخر بلاد أذربيجان مما يلي الروم ، وأصلهما من الأكراد الروادية ، وهذا القبيل هو أشرف الأكراد وقدماء العراق »^(٢) . وقد أنكر بعض الملوك الأيوبيين نسبتهم إلى الأكراد وادعوا السب إلى بنى أمية^(٣) لكننا نرجح كلام ابن الأثير لأنهم إنما ادعوا ذلك ليعززوا موقفهم فى تسم أريكة الملك .

الناصر صلاح الدين

استطاع الأيوبيون بما عرفوا به من شجاعة أن يؤسسوا ملكاً عظيماً، لكنه - مع الأسف - لم يدم طويلاً بسبب الخلاف الذى كان يحدث بين ملوكهم ، فى الوقت الذى كان فيه الخطر الخارجى يهدد صرح الدولة العربية الكبرى التى أقامها البطل الأيوبنى صلاح الدين .

لن أتحدث بالتفصيل عن ملوك الأيوبيين ، لكننى سأحاول - جهد المستطاع - أن أعرض للحياة السياسية بشكل عام يتناسب مع طبيعة بحثنا الأدبى ، وأقف قليلاً عند ملوك حماة الأيوبيين فى هذا العصر وفى العصر

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جزء ١ ص ٣ - ٦ ، وشذرات الذهب ج ٤ ص ١٨٦ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٣٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١١ ص ١٢٨ .

الذى يليه ، وذلك لما نعرفه من علاقة بين الشاعر وبين بعض ملوكهم المتأخرين

أقام صلاح الدين الدولة العربية الكبرى فى مصر والشام والحجاز واليمن والموصل وغيرها من الأوصقاع ، واستطاع أن يخلف الفاطميين فى مصر ، والزنكيين فى الشام ، وأن يوحد هذين القطرين ، ويجمع شتات سائر البلاد العربية الأخرى استعداداً لخوض المعركة الفاصلة مع الغزاة الطامعين الذين اندفعوا نحو البلاد الإسلامية من الشرق حيث يلوح شبح التتار ، ومن الغرب حيث يترصد الصليبيون للانقضاض على هذه الدولة التى خلفت الفاطميين .

اتحد العرب تحت زعامة هذا البطل فاندحر الفرنجة فى معركة حطين الخالدة اندحاراً ما عرفوا له مثيلاً ، وقد ذكر ابن الأثير ذلك . وأشاد به قائلاً : « ما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل إلى الآن بمثل هذه الواقعة » (١) . لم يكتف بهذه المعركة . بل شفعها بفتح بيت المقدس وأتخذ الصخرة المشرفة من أيديهم ، ونقل من حلب منبراً صنع خلال بضعة وعشرين عاماً وأقامه فى بيت المقدس ، وكان هذا النصر المبين أعظم فتح أحرزه هذا البطل ، وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك أيضاً فى قوله : « وهذه المكرومة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) غير صلاح الدين (رحمه الله) ، وكان ذلك فخراً وشرفاً » (٢) .

امتدت - بعد هذه الفتوحات الباهرة - أطراف هذه الدولة العربية الكبرى شرقاً وغرباً بعد أن اكتسح الغزاة الفرنجة وقهرهم ، وشملت مصر والشام والجزيرة وديار بكر واليمن والحجاز وغيرها .

كما أن بعض المؤرخين عدّ الحركة الأيوبية حركة تطهير دينى ضد الملحدّين والباطنيين بالإضافة إلى التحرر السياسى . يذكر ابن واصل ذلك فى مقدمة كتابه مفرج الكرب : « كانوا أعظم ممن تقدمهم من الملوك شأناً ، وأجلهم سلطاناً فتح الله بهم القدس الشريف من أيدي الكافرين ، وأذل

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١١ ص ٢٠٣ ، وكتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٥ .

(٢) المرجع السابق ج ١١ ص ٢٠٩ .

بسيوفهم أعناق الملحدين، وظهروا الديار المصرية من بدع الباطنية وشيدوا
أركان الملة الحنفية» (١) .

لم يكتف صلاح الدين بهذه الفتوحات، بل عزم على اكتساح الأقطار
المجاورة وإضعافها وخضد شوكتها حفظاً لهذه الدولة العربية الكبرى، لكيلا تقوى
على مهاجمتها، وتكون مصدر خطر يهدد كيانها وأمنها. وضع خطة هذا الأمر
الجليل سرّاً خلال رحلة صيد مع أخيه العادل، واتفق معه «أنه بعد ما يفرغ
من أمر الفرنج يسير هو إلى بلاد الروم، ويبعث أخاه إلى بغداد، فإذا فرغنا
من شأنهما سارا جميعاً إلى بلاد أذربيجان - بلاد العجم - فإنه ليس دونها
أحد يمانع عنها» (٢) .

عاجلته المنية، فقضى نجه مأسوفاً عليه سنة ٥٨٩ هـ، وكان إيذاناً بانقسام
المملكة بعده، فالديار المصرية لولده عماد الدين، واليمن لأخيه ظهير الدين سيف
الإسلام طغتكين بن أيوب. ودمشق وما حولها لولده الأفضل نور الدين على،
أكبر أولاده، وحلب لولده الظاهر غياث الدين، والكرك والشوبك وجعبر
لأخيه العادل، وحماة للملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر، وحمص والرحبة
وغيرهما لأسد الدين شيركوه الصغير (٣) .

استفحل الخلاف بين هؤلاء الأمراء، فضعفت هذه الدولة بعد قوتها وقد
دعا هذا الأيوبيين أن يوحدوا جهودهم، فأجمعوا كلمتهم على الملك العادل (٤)
لكن أولاد العادل اختلفوا أيضاً فيما بينهم، وتخاصموا، وقاتل بعضهم بعضاً،
فطمع الفرنجة من جديد في هذه الدولة العربية المتحررة ولاح شبح الخطر
من جديد، فاضطربت الأحوال عندما هددوا دمياط واستولوا عليها سنة
٦١٦ هـ، ولكنهم اضطروا إلى الانسحاب منها بعد أن هزمهم المصريون .
دبّ الخلاف بين أبناء العادل فحارب بعضهم بعضاً، وقد ذكر المقرئزي

(١) مفرج الكروب ج ١ ص ١ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢، ٣، والكامل ج ١٢ ص ٣٧ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٧، والنروضتين ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٤) المرجع السابق ج ١٣ ص ٦ .

هجوم أهل حلب على مدينة حماة سنة ٦٣٦ هـ ومحاصرة ملكها المظفر، ورحيلهم عنها بعد بأسهم من فتحها، واكتفوا وهم عائدون بهدم قلعة بارين الحصينة من أعمال مملكة حماة^(١). أو شكت هذه الدولة العربية أن يأفل نجمها، ولما يمض بعد على وجودها أكثر من ثمانين عاماً، ومن البشر من يعمر أكثر من ذلك، لكن الله تعالى شاء أن ينقذ هذه الدولة ويحفظها من الطامعين شرقيين وغربيين، وكان هذا على يد المماليك الذين وقفوا ببسالة أمام الخطر المتدلع.

المظفر الأول

يحسن بنا - قبل أن نعرض لعصر سلاطين المماليك - أن نذكر ملوك حماة الذين حكموها رداً من الزمن لما في بحثهم من علاقة وثيقة تجلّى لنا جانباً هاماً من جوانب مدائح ابن نباتة، ولا سيما أنه عاش الشطر الأول من حياته في كنف مليكها المؤيد وابنه الأفضل.

دخلت حماة القاهرة - كما يحلو لابن نباتة أن يدعوها - في حوزة صلاح الدين سنة ٥٧٠ هـ في مستهل جمادى الآخرة^(٢). وقد هددها الفرنج عدة مرات أشير منها إلى مرتين: أولاهما سنة ٥٧٣ هـ، وكادوا يملكونها قسراً وقهراً، ودام حصارهم لها أربعة أيام متواليات لكن شجاعة أهلها قهرتهم، وردتهم على أعقابهم خاسرين على الرغم من كثرة عدد مهاجميها^(٣). وثانيهما سنة ٥٧٤ هـ، وكانت أشد من المرة السابقة، لكن هذه المدينة القاهرة استطاعت أيضاً أن تقهر الفرنجة، وكان صلاح الدين - في هذه الفترة قد عاد من مصر، وحل بظاهر حمص، فحمل إليه الحمويون الأسرى والأسلاب^(٤).

ولى صلاح الدين ابن أخيه المظفر الأول ملك حماة سنة ٥٧٤ هـ، وألحق به

(١) السلوك ج ١ ص ٢٧٥، وشذرات الذهب ج ٥ ص ٧٧.

(٢) السلوك ج ١ ص ٢٧٥، وشذرات الذهب ج ٤ ص ٢٣٦.

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٦٨، والروضتين ج ١ ص ٢٧٥.

(٤) الكامل ج ١١ ص ١٦٨، والروضتين ج ٢ ص ٥.

المعرة ومنبج وكفر طاب وميتافارقين ، وسلّمه اللاذقية أيضاً بعد الفراغ من فتحها .

حارب المظفر أعداءه ، واكسح كثيراً من البلاد ، حتى ضمّ إلى ملكه حرّان وما وراء الفرات ، واستطاع أن يستولى على السويداء ، لكن المنية عاجلته ، وهو في أوج فتوحاته المظفرة ، فأخنى ابنه المنصور خبر وفاته حتى عاد به إلى حماة سرّاً ليدفنه فيها .

عرف المظفر بإحسانه وتشجيده كثيراً من المدارس في مصر والشام ، فرُوي أنه بنى في الفيوم بمصر مدرستين ، وثالثة في الرها ، بلّه المدارس الكثيرة التي بناها في عاصمة ملكه حماة . كما كان كعبة الشعراء ، ينتجعون مراده ، ويمدحونه مثل أسعد بن ممتّاي وغيره^(١) .

المنصور الأول

أقر صلاح الدين المنصور الأول أبا المعالي ناصر الدين محمداً في الملك خلفاً لأبيه سنة ٥٨٧ هـ^(٢) ؛ لكنه خشي من تضخم مملكة حماة ، فاستعاد البلاد التي فتحها أبوه المظفر في أواخر حياته ، وأبقى له منها فقط أقربها ، وهي المعرة وسلمية ومنبج وقلعة المضيق .

حارب المنصور الفرنج مراراً وكسرهم ، كما نشر العدل والأمن في رحاب ملكه ، فقصده العلماء والأدباء ، ويروى أن بلاطه كان يحفل بأكثر من مائتي عالم وفقه .

عرف بالتضلع من الفقه ، وقد أخذ علم الحديث في شبابه عن الحافظ السلمي في مدينة الإسكندرية ، كما ألف كثيراً من الكتب ، منها مؤلف تاريخي كبير على عدد السنين في عدة مجلدات ، ومنها طبقات الشعراء في عدة مجلدات أيضاً^(٣) .

(١) تاريخ حماة ص ٦٠ ، ٦١ ، ١١٩ ، والروضتين ج ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٢) السلوك ج ١ ص ١٠٧ ، وشذرات الذهب ج ٤ ص ٢٨٩ .

(٣) تاريخ حماة ص ٦٠ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، والسلوك ج ١ ص ٢٠٥ .

الناصر قلع أرسلان

أما الملك الناصر (قلج أرسلان) فقد تولى الملك بعد وفاة أبيه سنة ٦١٧ هـ بمساعدة خاله الملك المعظم صاحب دمشق^(١) ، وهو ليس بصاحب الحق الشرعى ، ذلك لأن أخاه المعهود إليه بالملك كان بمصر عند خاله الملك الكامل^(٢) ، وعندما عاد ليتسلمه حذره وخوفه من التعرض لأخيه^(٣) .

المظفر الثانى

لم يكفّ الملك المظفر الثانى عن المطالبة بحقه . فحاصر حماة مع عسكر الكامل ، وراسل حكامها خفية ، واتفق معهم أن يفتحوا له باب النصر فى ساعة السحر ، فتم له ما أراد ، ودخل المدينة ، وتولى ملكه سنة ٦٢٦ هـ^(٤) . أما الملك الناصر فقد قبض عليه ، وسيق للملك الكامل الذى بعث به إلى مصر فاعتقل ، وحبس فى قلعة الجبل حتى مات^(٥) .

تسابق الناس لتهنئته ، وكان على رأس المهنيين شيخ شيوخ حماة الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى ، وقد مدحه بقصيدة . منها قوله :

تناهى إليك الملك واشتدّ كادلهُ وحلّ بكّ الراجى فحلّت رواحلهُ
ترحلّت عن مصر فأمحلّ ربّعها ولما حلّت الشام روض ماحلهُ
وعزّت حماة فى جمى أنت غابهُ بصولتهِ تحمى كليب وائلهُ

(١) السلوك ج ١ ص ٢٠٥ ، وشذرات الذهب ج ٥ ص ٧٨ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٠٥ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٠٥ .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٦ ، ٢٤٤ .

وقد طالما ظَلَّتْ بتدبيرِ أهوجٍ يَخِيبُ مُرَجِّبِهِ ، وَيُحَرِّمُ سَائِلُهُ^(١)
لقد عزت حماة في عهده ، وأصبحت كعبة بلاد الشام جمعاء ، ويذكر
المقريزي أنها أصبحت ملجأ لكل من انتمى للسلطان الملك الصالح ، ومنها
يرد إليه بمصر كل ما يتجدد بالشام خاصة والمشرق عامة^(٢) .

توافد عليه كثير من الشعراء نذكر منهم جمال الدين بن مطروح الذي
نزل عنده^(٣) ، كما توافد عليه العلماء ، لأنه كان مشغوقاً بالعلم ، فاستخدمهم
في بناء الأبراج الفلكية وإقامة الطواحين المائية على العاصي . نذكر من هؤلاء
الشيخ علم الدين قيصر الذي مازالت بعض الأرحية المائية ومقاييس الماء
فيها تشهد بماله من فضل عظيم في هذا المضمار .

المنصور الثاني

ولي المنصور الثاني (سيف الدين بن محمد) الملك سنة ٦٤٢ هـ وكان
حدثاً ، فتولى أمر مملكة حماة مجلس وصاية مؤلف من قاضي القضاة شيخ
شيوخ حماة شرف الدين عبد العزيز الأنصاري ، وسيف الدين طغريل ،
والطواشي مرشد ، والوزير بهاء الدين بن التاج ، وكان هؤلاء الأوصياء لا يبتون
بأمر هام من أمور الدولة ما لم يرجعوا بالمشورة إلى أم المنصور غازية خاتون
بنت الملك الكامل .

كانت الدولة الأيوبية تلتظ آخر أنفاسها ، ولم يكد يبدأ ممارسة سلطته في
الملك حتى أصبح المماليك أصحاب السيادة ، يستمد منهم ملوك حماة الأيوبيون
سلطتهم .

(١) تاريخ حماة ص ٦٤ ، ٦٥ ، ١٢٢ ، ودهوان صاحب شرف الدين الأنصاري
ص ٤٠٣ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٢٠٢ .

(٣) المصدر السابق - ١ ص ٢٠٢ .

أحسن هؤلاء السلاطين الجدد معاملة الملوك الأيوبيين في معظم الأحيان أحسن معاملة، ويروى أن أعداء المنصور دسوا للظاهر بيبرس - خلال زيارته حماة - منديلاً يحمل كثيراً من الشكاوى ضد ملكها، ولكن بيبرس دفع هذا المنديل إليه، دون أن يفتحه لمكانة المنصور من نفسه. وهو بدوره قد تناوله وأحرقه، لكيلا يعرف شاكيه والحاقدين عليه.

اكتسحت في هذه الفترة جيوش التتار بلاد الشام كما رأينا من قبل، وقدم هولوكو على رأس هذه الجيوش عام ٦٥٧ هـ، وفر المنصور إلى مصر بحريمه وأولاده^(١)، وطلب نجدة السلطان قطز، فخرج معه لمحاربتهم^(٢)، فولوا الأدبار مدحورين، وهرب معهم «خسرو شاه» عامل هولوكو على حماة، وعاد المنصور إلى دقة ملكه، فدحه شاعره شرف الدين الأنصاري قائلاً:

رُعَتِ العِدَا فَضَمِنْتَ ثَلَّ عَرُوشِهَا	وَلَقَمَيْتَهَا فَأَخَذْتَ قَلَّ جِيُوشِهَا
فَعَدَا لِسَيْفِكَ فِي رِقَابِ كُمَاتِهَا	حَصَدُ الْمَنَازِلِ فِي بَيْبِسِ حَشِيشِهَا
وَطَوَّيْتَ عَنِ مِصْرٍ فَسَبَّحَ مَرَا حِلِّ	مَا بَيْنَ بَرِّكَيْهَا وَبَيْنَ عَرِيشِهَا
حَتَّى حَفِظْتَ عَلَى الْعِبَادِ بِلَادَهَا	مِنْ رُومِهَا الْأَقْصَى إِلَى أَحْبُوشِهَا
فَرَشْتَ حِمَاةً لوطِءٍ نَعْلِكَ خَدَهَا	فَوَطَّيْتَ عَيْنَ الشَّمْسِ مِنْ مَفْرُوشِهَا
وَكَذَا الْمَعْرَةَ إِذْ مَلَكَتْ قِيَادَهَا	دَهَشَتْ سُرُورًا سَارَ فِي مَدَهْوشِهَا ^(٣)

المظفر الثالث

أقام السلطان قلاوون المظفر الثالث (تقى الدين محموداً) ملكاً بعد وفاة أبيه سنة ٦٨٣ هـ، وقد حفظ له المظفر هذا الجميل فسار معه لفتح قلعة المرقب

(١) السلوك ج ٢ ص ٤٢٣ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٤٢ .

(٣) تاريخ حماة ص ٧٢، وديوان شرف الدين الأنصاري ص ٢٦٩ - ٢٧١ .

وكان معها عمه الأفضل والأمير أبو الفداء ، وتم فتحها بعد أن أعطى أهلها الأمان ، وزار السلطان قلاوون حماة ، واحتفى به ملكها أيما احتفاء^(١) . انقطع حكم ملوك الأيوبيين فترة من الزمن ، لأن سلطان مصر الناصر محمد عين بعد وفاة المظفر الثالث سنة ٦٩٨هـ ، أحد الأمراء المماليك بعد استيلائه عليها^(٢) وهو الأمير « قراسنقر الجوكدار »^(٣) . فحضر إلى حماة ، ونهب دار الملك المظفر ، وشرذ أسرته وجماعته . خلف هذا الأمير أمراء آخرون مثل « زين الدين كتبغا » و« سيف الدين قبجق » و« أسندمر » . وقد أحب هذا الولى الأخير حماة ، وود البقاء فيها عندما صدر أمر نقله إلى حلب ، غير أن الناصر محمداً عين أبا الفداء ملكاً عليها مع توابعها ، وهكذا عادت حماة ثانية إلى حكم ملوكها الأيوبيين ، وكان ذلك آخر مرة لها في الملك .

المؤيد أبو الفداء

هو المؤيد إسماعيل بن الملك الأفضل علي بن المظفر محمود بن المنصور محمد بن المظفر عمر بن شاهنشاه ، ولابد لعودة الأسرة الأيوبية من سبب ، ويذكر لنا المؤرخون أن أبا الفداء قدم الوفاء للناصر محمد عند ما أقام في الكرك — كما رأينا — سنة ٧٠٨هـ ، وقد انضم إلى حاشيته وهو في منفاه ، كما أن أمير عشائر البادية مهنا بن عيسى^(٤) لم يكن راضياً عن النائب أسندمر ، فسافر إلى القاهرة وطلب من الناصر حين عودته تعيين أبي الفداء . وسبق له أن وعده بملكها^(٥) ، وتم له ذلك سنة ٧١٠هـ

لقب أبو الفداء بالملك الصالح^(٦) أولاً ، ثم بالملك المؤيد ، وكان يزور مصر كل عام ، فيحمل للسلطان الهدايا النفيسة ، وكان يطلب من نوابه أن

(١) السلوك ج ١ ص ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، وتاريخ حماة ص ٧٢ .

(٢) معجم الأنساب ج ١ ص ١٥٤ ، وتاريخ حماة ص ٧٦ .

(٣) السلوك ج ١ ص ٨٨١ ، والبداية والنهاية ج ١٤ ص ٥ .

(٤) السلوك ج ٢ ص ٨٧ .

(٥) الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٧١ .

(٦) المصدر السابق ج ١ ص ٣٧١ .

يكتبوا إليه : « يقبل الأرض بين يديه » ، و « المقام العالى الشريف المؤيدى العمادى » (١) ، ويذكر فى العنوان : « صاحب حماة » ، ويكتب إليه الناصر محمد ، « أخوه محمد بن قلاوون » و « أعز الله أنصار المقام الشريف العالى السلطان الملكى المؤيدى العمادى » لم يكن أبو الفداء يحمل لقب الملك - على ما نعتقد - فى السنين العشر الأولى من حكمه . ويعنى هذا أنه كان نائباً عن السلطان الناصر محمد (١) ، وأصبح ملكاً سنة ٧٢٠ هـ . إذ منح هذا اللقب الملكى .

تمتع بالسلطة المطلقة ، فليس لأى نائب أو وزير سلطة عليه ، وقد أركب فى القاهرة بشعار السلطنة فى موكب حافل ، والأمراء يمشون فى خدمته حتى أرغون النائب (٢) .

ذكر الأسنوى وغيره أنه كان عالماً جامعاً لأشتات العلوم ، وهو أعجوبة من أعاجيب الدنيا ، ماهر فى الفقه والتفسير والأصول والنحو وعلم الميقات والفلسفة والمنطق والطب والعروض والتاريخ وغير ذلك من العلوم (٣) .

فلا غرابة إذا رأينا بلاطه كعبة رجال العلم والأدب ، ينتجعون مراده ، فيبئى لهم الفرش والآلات ، ويخصص لهم الرواتب الكثيرة ، نخص بالذكر منهم أثير الدين الأبهري الحكيم ، والمقرئ الفيومى صاحب المصباح المنير . أما الشعراء فكان سوق عكاظهم ، يؤمونه من كل حذب وصوب وينشدونه المدائح الغر ، وينشدهم ما ينظمه من الشعر (٤) ، نخص بالذكر منهم ابن نباتة ، والصنى الحلى ، والشهاب محموداً وغيرهم .

لم تشغله أمور ملكه عن التأليف ، فصنف فى كل علم تصنيفاً نفسياً أو تصانيف (٥) نذكر منها تاريخه المشهور (المختصر فى أخبار البشر) ، وقد قرظه ابن نباتة بقوله :

(١) السلوك ج ٢ ص ٣٥٤ ، والدرر الكامنة ج ١ ص ٣٧١ .

(٢) تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٩٧ .

(٣) السلوك ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٤) تاريخ الأسنوى ، مخطوط فى دار الكتب الوطنية بحماة وليس له رقم . ورقة ٦٨ .

(٥) تاريخ حماة ص ١٢٦ ، والسلوك ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٦) الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٧٢ ، والسلوك ج ٢ ص ٣٥٤ .

لله تاريخٌ له رونقٌ كرونق الحباتِ في عقديها
 كادتُ تواريخُ الورى عندهُ تموتُ للخجلةِ في جلديها^(١)
 ومن تصانيفه المشهورة أيضاً: (تقويم البلدان) ، ونظم الحاوى في فقه الشافعى
 « نظماً مشحوناً بالفوائد »^(٢) وكتاب (الموازن) ، وكتاب (الكناش) ،
 وهو فى عدة مجلدات ، تجمع فيه النحو والصرف والمنطق وعلم الهيئة وغير ذلك
 من العلوم^(٣) .

الأفضل محمد

تولى الملك بعد وفاة أبيه المؤيد سنة ٧٣٢ هـ ويذكر لنا المقرئى أن أمه
 توجهت إلى دمشق ، وتولت لدى نائب الشام الأمير تنكز ، وقدمت له
 جواهر ، وسألته إقامة ولدها الأفضل مكان أبيه . كتب تنكز بدوره إلى
 السلطان يخبره بوفاة المؤيد ، فبعث السلطان رسالة يتأسف فيها على الملك
 الراحل ، ويولى ابنه مكانه ، وطلب من نائبه أن يجهره ، ويبعث به إلى مصر .
 توجه الأفضل إلى القاهرة . وفيها ركب من المدرسة المنصورية بين القصرين
 وهو بشعار السلطنة ، وبين يديه العاشية ، وقد نشرت على رأسه الأعلام
 الثلاثة ، وسار فى موكب كبير إلى باب زويلة ، وصعد إلى قلعة الجبل ، ومثل
 بين يدي السلطان ، وخلع على الأمراء ، ولقبه فى ذلك اليوم بالأفضل ، وكان
 يدعى — من قبل — بالملك المنصور^(٤) . أحبه الناس فى مطلع حكمه ، لأنه
 سار فيهم سيرة عادلة ، وكان مقبول الشفاعة لدى سلطان مصر ، واستطاع أن
 يتوسط لإزالة الخلاف بين السلطان وبين أمير العرب مهنا بن عيسى ، وعاد
 هذا الأمير إلى مكانه فى تل أعدا .

(١) السيف المهند ، ص ٩٣ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٧٢ ، والسلوك ج ٢ ص ٣٥٤ ، وتاريخ حماة ص ١٢٦ ،

وتاريخ ابن الوردي ص ٢٩٧ .

(٤) السلوك ج ٢ ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

تغيرت حال الأفضل فجأة ، فأعرض عن الحياة الدنيا ، وانصرف إلى الزهد والعبادة . ولا نعرف سبب ذلك ، وسوف نوضح هذا الأمر خلال حديثنا عن ابن نباتة .

اضطربت أمور مملكة حماة لانصراف مليكها عن تدبير أمورها ، فطمع بعض أعدائه ، باقتطاع بعض أطرافها، وهاجم الأعراب كثيراً من إقطاعاتها^(١) . والغريب أن هذا الزهد انقلب إلى عنف وشدّة واستبداد ، فتغير حاله تغيراً كبيراً، وقد ذكر المؤرخون أنه أمر بحبس طاهر بن قرناص ، وهو من كبار رجال حماة ، فعذبه بين جدارين ، وتركه يموت جوعاً^(٢) .

كانت هذه الحادثة سبب عزله ، فنقل إلى دمشق أميراً سنة ٧٤٢ هـ ، وعادت حماة نياية كغيرها من مدن الشام . وتولى أمرها بعده مملوك أبيه « طغز دمر »^(٣) ، وبذلك يكون الأفضل آخر الملوك الأيوبيين الذين حكموا مملكة حماة القاهرة في عصر سلاطين المماليك .

لم يلبث الأفضل في دمشق إلا يسيراً حتى وافته المنية ، فعادت به أمه إلى حماة ودفنته في مدينة أجداده الأقدمين .

القسم الثاني

المماليك البحرية

نكتفي خلال دراستنا الحياة السياسية بالتحدث عن المماليك البحرية ، لأن ابن نباتة عاش في عصرهم ، ونضرب صفحاً عن المماليك البرجية .
تفاقم الخلاف – كما ذكرنا – بعد صلاح الدين والعاقل ، وقد أدى هذا الخلاف إلى ضياع السلطان وانتقاله إلى ممالكهم .

(١) الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٨٩ .

(٢) تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٣٢٣ .

(٣) الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٨٩ ، وتاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٣٢٣ .

كانت الفترة الأخيرة من عصر الأيوبيين مشحونة بالأحقاد والضغائن ،
ويذكر المؤرخون أن السلطان الأيوبي « توران شاه » نجح الملك الصالح
نجم الدين أيوب اختلف مع ممالك أبيه ، فعاملهم بالقسوة ، وأخذهم بالعنف
كما أساء من طرف آخر لأرملة أبيه شجرة الدر التي قدمت له من قبل مساعدة
كبرى ليتسلم السلطنة بعد أبيه ، حيث أخفت عن الأمراء موته ، كما تحفظ له
حقه في السلطان عندما كان بعيداً في حصن « كيفا » من أعمال الموصل .

يذكر المقرئى أنه لما ماتت أحضرت زوجها شجرة الدر الأمير فخر الدين
ابن شيخ الشيوخ ، والطواشى جمال الدين محسناً ، وأعلمتهما بموت السلطان ،
وأوصتهما بكتان موته خوفاً من الفرنج^(١) ، أما أمور الدولة فقد صرفها ودبرها
الطواشى محسن حتى عاد توران شاه من الموصل^(٢) .

استفحل خطر الفرنج ، وافتتح السلطان العائد حياته بمحاربتهم وأبلى
أحسن البلاء ، فهزيمهم هزيمة نكراء في معركة « فارسكور » و« المنصورة »^(٣)
وقبض على لويس التاسع سنة ٦٤٧هـ ، واقتاده أسيراً ، وسجنه في دار « ابن لقمان »
بالمنصورة ، بعد أن كبل بالأغلال ، ووكل أمره إلى الطواشى جمال الدين
صبيح المعظمى ، يحفظه مكرماً غاية الإكرام^(٤) .

افتدى لويس التاسع نفسه بالمال ، وبدا له أن يعود ليغسل عن نفسه عار
الهزيمة النكراء التي لحقت به ، فسخر منه الشاعر المصرى جمال الدين بن
مطروح ، ونظم قصيدة ساخرة^(٥) يقول فيها :

قُلْ للفرنسيين إذا جِئْتَهُ مقالَ نُضْحٍ مِنْ قَوْلِ فصيحِ
أَجْرَكَ اللهُ على ما جرى مِنْ قَتْلِ عِبَادِ يسوعَ المسيحِ

(١) السلوك ج ١ ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٤٦ ، والسلوك ج ١ ص ٣٤٣ .

(٣) السلوك ج ١ ص ٣٥٣ . (٤) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٦ .

(٥) ذكر أحمد بن على الحريرى، أن الملك لويس التاسع بعث إلى السلطان المنز
أيك بعد إطلاق سراحه وعودته إلى بلاده بكتاب يتوعده ، فكتب السلطان الجواب « وضنه
هذه الأبيات » (الإعلام والتبيين (مخطوط) ورقة ١٤٠)

أَتَيْتَ مِصْرَ تَبْتَغِي مُلْكَهَا تَحْسِبُ أَنَّ الزَّمَرَ يَا طَبْلُ رِيحَ
 فَسَاقَكَ الْحَيْنَ إِلَى عَسْكَرِ ضَاقَ بِهِ عَن نَاطِرِيكَ الْفَسِيحَ
 وَكُلُّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعَتْهُمْ بِسُوءِ تَدْبِيرِكَ بَطْنَ الضَّرِيحِ
 خَمْسُونَ أَلْفًا لَا يُرَى مِنْهُمْ إِلَّا قَتِيلٌ أَوْ أَسِيرٌ جَرِيحُ
 فَرَدَّكَ اللَّهُ إِلَى مِثْلِهَا لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَمْتَرِيحُ
 إِنْ كَانَ «بَابَاكُمْ» بَذَا رَاضِيًا فَرُبَّ غَشٍّ قَدْ آتَى مِنْ نَصِيحِ
 فَاتَّخَذُوهُ كَاهِنًا إِنَّهُ أَنْصَحُ مِنْ شِقِّ^(١) لَكُمْ أَوْ سَطِيحِ^(٢)
 وَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَضْمَرُوا عَوْدَةَ لِأَخَذِ ثَارٍ أَوْ لِقْصِدِ صَحِيحِ
 دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى عَهْدِهَا وَالْقَيْدُ بَاقٍ وَالطَّوْاشِيُّ صَبِيحِ^(٣)

أصبحت دار ابن لقمان مضرب الأمثال في العالم ، ويروى أن لويس التاسع هاجم مع عدد من ملوك أوربا تونس ، ونزل بساحل قرطاجنة ، وبقي هناك ستة أشهر ، ويروى المقرئزي أن شاعراً من أهل تونس يدعى أحمد بن إسماعيل الزيات ، سخر من ملك فرنسا ، وأنشده قائلاً :

يَا فَرَنْسِيْسُ هَذِهِ أَخْتُ مِصْرَ فَتَاهَبْ لِمَا إِلَيْهِ نَصِيرُ
 لَكَ فِيهَا دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ قَبِيرًا وَطَوَاشِيكَ مُنْكَرٌ وَنَكِيرُ^(٤)
 فكان هذا القول شوماً عليه ، ومات بعد ذلك .

لم يطل حكم توران شاه . ويروى أنه توعد شجرة الدر بالسوء ، فبعثت للأمرء

(١) شق اسم كاهن من كهان العرب .

(٢) سطيح : هو كاهن بني ذئب ، وكان يتكهن في الجاهلية ، وقد روى أن النعمان بن المنذر وجه إليه ابن أخته عبد المسيح بن نفيلة التساني لكي يسأله عن رؤيا كسرى يوم مولد الرسول .

(٣) ديوان ابن مطروح ص ١٨١ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ٨٧ ، ٨٨ ، والتجويد الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٠ ، والسلوك ج ١ ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٥ ، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ١ ورقة ٣٥٩ ، والإعلام والتبيين (مخطوط) ورقة ١٤٠ ، ١٤١ .

(٤) السلوك ج ١ ص ٣٦٥ ، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ١ و ٣٦٠ .

والممالك البحرية تقول لهم: « اقتلوا توران شاه وعلى رضاكم بكل ما يمكن »^(١). فقتل السلطان شرقتة دونما رحمة أو شفقة ، إذ مات حريقاً غريباً ، وبقيت جسده ثلاثة أيام متواليات ملقاة في العراء ، ولم تدفن حتى تشفع في دفنه رسول خليفة بغداد^(٢) .

هكذا دالت دولة الأيوبيين ، ولما يمض بعد على قيامها ست وثمانون سنة ، انتقل الملك بعدها إلى شجرة الدر وكانت أول من حكم بعد أن أجمع أمراء المماليك على توليتها أمر السلطنة ، وأن يكون الأمير عز الدين بن أيك مدبر مملكتها معها^(٣) . خطب باسمها على المنابر بمصر والقاهرة^(٤) وكانت الخطباء تقول بعد الدعاء للخليفة : « واحفظ اللهم الجبهة الصالحة ، ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب »^(٥).

كما نقش اسمها أيضاً على الدينار والدرهم ، وكانت توقع باسم والدة خليل^(٦) . بلغ الخليفة المستنصر بالله أمر مبايعة شجرة الدر ، فنفس عليهم ذلك ، وأرسل إلى أمراء مصر من المماليك يقول لهم : « أعلمونا إن كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة ، فنحن نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »^(٧) .

كما أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام تحدث عن هذا الأمر في بعض تصانيفه في معرض حديثه إذا ما ابتلى المسلمون بولاية امرأة ، ونكتفي بالإشارة

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ٨٨ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٢ .

(٣) بدائع الزهور ج ١ ص ٨٩ ، والبداية والنهاية ج ١٣ ص ١٩٩ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٢ ، والبداية والنهاية ج ١٣ ص ١٩٩ ، وحسن

المحاضرة ج ٢ ص ٣٤ .

(٥) بدائع الزهور ج ١ ص ٨٩ ، والمنهل الصافي و ١٧٦ .

(٦) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٤ .

(٧) بدائع الزهور ج ١ ص ٨٩ ، وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٤ .

هنا إلى هذا الأمر دون التفصيل فيه^(١) . تزوجت السلطانة مدير أمر ملكها بناء على رأى القضاة والأمراء ، ثم خلعت نفسها ، وبايعت زوجها ، فلقب بالمعز ، ولكنها عندما شعرت أنه بدأ يميل إلى غيرها من النساء تأمرت عليه وهو في الحمام ، وخنقته بمعونة بعض مماليكها ، وانتقل السلطان بعد ذلك إلى سيف الدين قطز لأن ابنه علياً كان صغير السن . تجرى كل هذه الحوادث والبلاد تجابه خطرين : خطر الفرنجة الذين يريدون أن ينتقموا من المسلمين ، وخطر التتار الطامعين الذين يريدون أن يطمسوا ما تبقى من معالم الحضارة الإسلامية من الوجود .

المظفر قطز

تسلم الممالك دفة الحكم ، واستطاعوا بالرغم من اختلافهم أن يحفظوا هذه البلاد من شر الطامعين ، ويقفوا أمام جحافل القادمين من الشرق والغرب . جابه قطز التتار ، وحاربهم حرباً صادقة ، وكسبهم في عين جالوت^(٢) وهو يكر بنفسه في المعركة ، ويصبح : « والإسلاماء ثلاث مرات ، ويدعو ربه « يا الله ، انصر عبدك قطز على التتار »^(٣) . انكسر هولاءكو بجيشه سنة ٦٥٨ هـ ، فدخل السلطان دمشق ، وطهر بلاد الشام من فلولهم ، وقرر أن يعود إلى القاهرة ، فازدانت لقدوم البطل الذى قهر هؤلاء الذين خربوا بغداد ، ولما طلع اليرم الذى يصل فيه قطز إلى القاهرة ، نادى المنادى : « ترحموا على الملك المظفر ، وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس »^(٤) . لقد فتك بيبرس بسلطانه ، لأنه رفض أن يولى نيابة حلب ، وترجع على عرش السلطنة مكانه ، لكنه شعر أن رأى العام كان حائقاً عليه ، فأراد أن يعيد

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٤ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٤٣٠ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٢٤ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٤١ .

(٤) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢٢ ، والسلوك ج ١ ص ٤٢٧ .

ثقة الناس به ، وخير ما يفعله أن يعيد الخلافة الإسلامية إلى الوجود بعد أن طوّح بها التتار في بغداد ، كما يؤيد حكمه ، ويشد بذلك أزره .

هكذا بدأ حكم المماليك ، يقتل قويمهم ضعيفهم ، ويغدر المولى بسيده ، ليسلبه الحكم والسلطان . والغريب أن عصرهم كان أخطر فترة مرت في التاريخ الإسلامي ، لأنهم - كما ذكرنا - مهددون بخطرين جسيمين ، يضاف إليهما خطر داخلي آخر . وهو عدم الاستقرار والتنازع بين الأمراء أنفسهم ، ومع كل ذلك فقد ثبتوا في الخطوب ، وانتصروا في الحروب ، وكان عصرهم بحق عصر ازدهار أدبي وعلمي . وما زالت آثارهم شاهدة على ما نقول ، تحتاج لنفض هذا الغبار من الإهمال الذي تراكم عليها مع تطاول الأزمان .

يبلغ عدد سلاطين المماليك البحرية أربعة وعشرين سلطاناً ، أولهم : الملك المعز عز الدين أيبك زوج شجرة الدر ، وآخرهم الصالح أمير حاج بن شعبان الذي خلفه برقوق الجركسي سنة ٧٨٤ هـ .

لن أتحدث طويلاً عن حياة سلاطين المماليك ، بل سأكتفي بالوقوف عند سرواتهم ممن يهنا أمرهم . أما أسرة قلاوون فكان لها النصيب الأوفى في الحكم ، إذ حكم من هذه الأسرة وحدها أربعة عشر سلطاناً ، تولى بعضهم السلطنة أكثر من مرة . نذكر مثلاً أن الناصر محمداً تولاها ثلاث مرات ، وابنه الناصر حسناً تولاها مرتين . - -

نذكر - بالإضافة إلى الناصرين - من ملوك هذه الأسرة الكامل شعبان ابن الناصر محمد ، وأخاه المظفر حاجي ، إذ أن ابن منبأية عرفهم - وعرض بهم في شعره ، كما سنرى ذلك في مكانه من هذا البحث .

الناصر محمد

تولى الناصر محمد الملك بعد مقتل أخيه الأشرف سنة ٦٩٣ هـ ، وله من العمر تسع سنين^(١) ، فلم يبق فيه أكثر من عام ، وعاد للسلطة ثانية إثر مقتل لاجين سنة ٦٩٨ هـ بعد أن نفي عنه مدة أربع سنوات تقريباً^(٢) .

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٩ . (٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٩ .

سار الناصر محمد مرتين إلى بلاد الشام محاربة جحافل التتار الزاحفين على البلاد الإسلامية ، وقد صحبه في المرة الأولى الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله والقضاة الأربعة ، وكان معه قاضي القضاة الشافعي آتشد شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد أستاذ ابن نباتة الأول . لقي الناصر «غازان» في معركة ضارية قرب سلمية^(١) ، واندهر السلطان على أثرها ، فخاف أهل دمشق شر التتار فأرسلوا إلى قائدهم بعلمائهم يطلبون منه الأمان ، نذكر منهم بدر الدين بن جماعة ، وزين الدين الفارق ، وتقي الدين بن تيمية ، ونجم الدين بن صصرى ، وجمال الدين القزويني وغيرهم .

رحل غازان عن دمشق ، وترك بها أميراً تربيّاً اسمه «قطلو» شاه بك^(٢) ومعه جيش من التتار ، أراد الناصر أن يغسل عن نفسه عار الهزيمة فتوجه نحو الشام عندما أخبره الأتابكي بيبرس أن التتار بدأوا يزحفون من جديد وعلى رأسهم غازان . أسرع للقائهم سنة ٧٠١ هـ . ودرات رضى معركة حامية الوطيس على أرض «مرج راهط»^(٣) تحت جبل غباغب ، فكان النصر في هذا اليوم -الأغر للناصر ، إذ دخل دمشق ، ومعه الخليفة الجديد المستكنى بالله والقضاة الأربعة ، وقد بدت المدينة مزدانة بأحلى زينة . حاول غازان العودة لاستعادة بلاد الشام بعد أن جمع في همدان جنده من جديد . إلا أنه مات سنة ٧٠٣ هـ مسموماً ، فقال الشيخ علاء الدين الوداعي^(٤) :

قد ماتَ غازانُ بلا عِلَّةٍ . ولم يَمُتْ في السنةِ الماضيةِ
بل سَنَعُوا في موتِهِ فانثَنَى حياً ولكنْ هذه القاضيةِ

ساعت الأمور بينه وبين بيبرس الجاشنكير ، والنائب سلاز ، فادعى أنه عازم على الحج سنة ٧٠٨ هـ . لكنه توجه نحو الكرك . فبيع بعده بيبرس خفاقاً له . لكن الناس لم يكونوا اراضين . عن حكمه . لأنهم كانوا يحبون الناصر ،

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٠ .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٥ .

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٦ . ١٤٧٠ .

وزاد من نعمتهم عليه تأخر فيضان النيل ، موردها الحصب ومفيض الخير عليهم ، فضج الناس بالشكوى بعد أن ارتفع سعر الخبز . وعم الغلاء أرض الكنانة ، فأشد الناصر الحمأى قوله :

إِنْ عَجَّلَ النُّورُ قَبْلَ الوَفَا عَجَّلَ للعَالِمِ صَمْعَ القَفَا
فقد كَفَى مِنْ دَمْعِهِمْ مَا جَرَى وما جَرَى مِنْ نَيْلِهِمْ مَا كَفَى^(١)

كما أن العوام صنعوا كلاماً ولحنوه . وصاروا يغنونه علناً في الساحات العامة ، يطلبون فيه عودة الناصر محمد :

سُلْطَانِنَا رُكَيْنٌ^(٢) وَنَايِبُو دُقَيْنٌ^(٣)

يَجِينَا المَائِ مِنْ إِيْنُ

هَاتُوا لَنَا الأَعْرَجُ^(٤) بِيَجِي المِيْ يَدْحَرَجُ^(٥)

انتشر هذا الغناء بين الناس وتردد في محافلهم الخاصة والعامة ، فبلغ مسامع السلطان بيبرس . وأمر بالقبض على ثلاثمائة شخص ، ضرب منهم جماعة بالمقارع ، وأشهرهم بالقاهرة ، وقطع ألسنة بعضهم الآخر .

أما الناصر محمد فلم يقف مكتوف اليدين ، بل توجه إلى دمشق ، ودخلها في موكب عظيم ، فمشى جميع النواب في ركابه . ودخلوا تحت طاعته ، وشرع يحكم الشام ، وخطب له فيها على المنابر ، وأقر كل نائب على منطقتة .

عاد الناصر للسلطنة للمرة الثالثة بعد أن تأكد من وقوف الناس في جانبه ، فهرب بيبرس من القاهرة متجهاً نحو الكرك . فقبض عليه ، وخنق بين يديه .

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٠ .

(٢) ركين : كان لقب السلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير فسأه العوام (ركين) .

(٣) دقين : لقب الأمير النائب سلاز ، وكان أجرد ، في حنكه بعض الشعرات ، لأنه

كان من التتار ، فسأه العوام (دقين) .

(٤) الأعرج : لقب أطلقه العوام على السلطان الناصر لأن به بعض العرج .

(٥) بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٠ ، وحسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٠ .

أشار شعراء العصر لهذه الحادثة ، فقال علاء الدين الوداعي في شعره :

الملكُ الناصرُ قد أَقْبَلَتْهُ دَوْلَتُهُ مُشْرِقَةَ الشَّمْسِ
عَادَ إِلَى كَرْسِيِّهِ مِثْلَمَا عَادَ سُلَيْمَانُ إِلَى الْكُرْسِيِّ (١)

وقال الصفدي أيضاً :

تَثْنَى عِطْفُ مِصْرٍ حِينَ وَافَى قَدُومُ النَّاصِرِ الْمَلِكِ الْخَبِيرِ
فَذَلَّ الْجَنْشَكِيرُ بِلَا لِقَاءٍ وَأَمَمَى وَهُوَ ذُو جَأْشٍ نَكِيرِ
إِذَا لَمْ تَعْضُدِ الْأَقْدَارُ شَخْصًا فَأَوْلُ مَا يُرَاعُ مِنَ النَّصِيرِ (٢)

بعد هذا السلطان من أعظم سلاطين المماليك ، وأطولهم حكماً (٣) ، بلغت مدة حكمه في المرات الثلاث ثلاثاً وأربعين سنة وثمانية أشهر ، وقد استطاع تأديب التتار والفرنجية ، فرحل مراراً إلى بلاد الشام ليلتقي بهم . إلا أنهم كانوا يخشون لقاءه ونزاله .

شرع - بعد دفع الخطر الخارجي واستتباب الأمن - ينظم البلاد ، فقمم مصر والشام إلى أقسام جديدة ، دعيت بالروك الناصري (٤) ، كما ألغى نيابة السلطنة ، لأنه أدرك أنها مصدر خطر على السلطان نفسه . وبعد عصره من أزهى عصور سلاطين المماليك .

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٦ .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٦ .

(٣) والسلوك ج ٢ ص ٥٢٤ .

(٤) بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٩ ، والسلوك ج ٢ ص ٥٢٤ .

الكامل شعبان

نقف عند الكامل شعبان بن الناصر محمد ، بويغ بالسلطنة بعد موت أخيه الملك إسماعيل بعهد منه . وليس شعار السلطنة سنة ٧٤٦ هـ ، وفيه بقول ابن نباتة :

طلعةً سلطانينا تَبَدَّتْ بكاملِ السعدِ في الطلوعِ
واعجَبْ لهاتيكَ كيفَ أبدأتْ هلالَ شعبانَ في الربيعِ^(١)
استبد الكامل بالأمر وساعت سيرته . وعزل كثيراً من نوابه ، وأمر بالقبض عليهم . وحاول قتل أخويه ، وذلك بإدخالهما في مكان تحت « الدهيشة » ثم بنى عليهما بالحجر ، وجعل ذلك المكان قبراً لهما .

نتج عن هذا النزاع تمرد بعض جماعته الأقربين ، فقبضوا عليه . وخنقوه في السجن سنة ٧٤٧ هـ بأمر من أخيه ، فقال في ذلك الصفدى :

بيتُ قسلاوونَ سعاداته في عاجلٍ كانتْ بلا آجلِ
حلَّ على أملاكه للردى دينُ قد استوفاهُ بالكامل^(٢)

المظفر حاجي

تولى السلطنة بعد مقتل أخيه الكامل ، وفيه يقول ابن نباتة :

يا إمام الورى ، مَضَى نصفُ عامٍ مِنْ وصولي ولمْ يصلْ لى رُبْعِ
سنةٌ إن غَفَلتَ عنيَ فيها كَسَرْتَنِي وكيفَ لا ، ودنى سبعُ^(٣)

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ١٨٣ ، والديوان ص ٢٢٠ ، وأعيان مصر (مخطوط مصور) ج ٣ ق ١ ورقة ٧٦ .

(٢) بدائع الزهور ج ١ ص ١٨٦ ، وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٨ .

(٣) بدائع الزهور ج ١ ص ١٨٣ ، والديوان ص ٢٢٠ ، وأعيان مصر (مخطوط مصور) ج ٣ ق ١ ورقة ٧٦ .

ساعت أمور المظفر ، واختلف مع الأمراء وعكف على تربية الحمام يلهو بذلك ، فاهتبل الأمراء منه ذلك ، وثاروا عليه ، فنشبت بينه وبينهم معركة وقع فيها أسيراً ، فقبض عليه ، وسجن ومات مخنوقاً ، وقد أشار الصفدي إلى ذلك بقوله :

أَيُّهَا الْعَاقِلُ اللَّيِّبُ تَفَكَّرْ فِي الْمَلِكِ الْمَظْفَرِ الضَّرْغَامِ
قَدْ تَمَادَى وَازْدَادَ فِي الْبَغْيِ حَتَّى كَانَ لِعُوبِ الْحَمَامِ حَدَّ الْجِمَامِ (١)

الناصر حسن

تولى الناصر حسن بن محمد السلطنة بعد مقتل أخيه المظفر حاجي ، وله من العمر ثلاث عشرة سنة ، وقد حدث في العام الثاني لتولية الحكم طاعون مخيف ، أخذ البشر والسائمة ، وتسرب إلى مكة المكرمة ، وما قاله الصفدي :

لَمَّا افْتَرَسَتْ صِحَابِي يَا عَامَ تِسْعَ أَرْبَعِينَ (٢)
مَا كُنْتُ وَاللَّهِ تِسْعًا بَلْ كُنْتُ سَبْعًا يَقِينًا (٣)

تآمر الأمراء كعادتهم على الناصر حسن ، وخلعوه ووضعوا أخاه صالحاً مكانه سنة ٧٥٢ هـ ، لكنه عاد ثانية لسلطته بعد خلع أخيه ، وقد هنا ابن نباتة قائلاً :

عُدَّ عَلَى النَّصْرِ وَالسَّعَادَةِ يَا مَنْ رَفَعَ اللَّهُ فِي السَّلَاطِينِ شَانَهُ
أَنْتَ سَهْمٌ لِلَّهِ مَا كَانَ يُخَلَى مِنْهُ أَوْطَانٌ مِضْرَ وَهِيَ كِنَانَةٌ (٤)

أحسن هذا السلطان — كما سئرى — لابن نباتة كل الإحسان ، واستدعاه

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٨ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ١٨٩ .

(٢) في الأصل : « يا عام تسع وأربعينا » والصواب ما أثبت ، وذلك لحذف تنوين (تسع) ، وحذف الواو ، ووصل همزة القطع ليستقيم الوزن .

(٣) بدائع الزهور ج ١ ص ١٩٠ .

(٤) الديوان ص ٥٣١ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٣ .

لمصر قبيل مقتله بعام واحد ، وذلك سنة ٧٦١ هـ .

نكتفي بهذا القدر من ذكر سلاطين المماليك الذين كانت لهم علاقة بحياة أديبنا ابن نباتة ، والذين يجلبون لنا بعض أحداث عصر هام من العصور الإسلامية .

القسم الثالث الوحدة العربية الكبرى

لم تكن الوحدة العربية التي انطلقت في هذا العصر حديثة في وجودها وتكوينها ، ولو تصفحنا التاريخ العربي منذ أقدم عصوره ، لرأينا تباشير فجرها قد أفصحت من أفقها البعيد ؛ - وقد بطول بنا البحث لو حاولنا استعراضها بالتفصيل ، ونكتفي بالقول هنا إن العباسيين فطنوا لوحدة البلاد الواقعة غرب الأنبار ، فكانوا يولون ولي العهد أميراً على هذه البلاد ، ويلقبونه والى الغرب ، وأصبح ذلك تقليداً معروفاً عندهم . وتشتد أواصر الوحدة العربية بعد ذلك على يد الطولونيين الذين عمروا أرض الكنانة ، وحفظوا لمصر كيائها بعد أن خلسوها من جور الولاة العباسيين ، وحاولوا أن يقلدوا سادتهم من الخلفاء في سامراء . لكن عهد الطولونيين لم يدم طويلاً ، إذ عادت مصر إلى حكم العباسيين ، ولم تلبث إلا قليلاً حتى شهدت حكم الإخشيديين ، وحاول هؤلاء بدورهم أن يحفظوا وحدة البلاد العربية بالذود عن حياضها وتحريرها من أطماع الغزاة القادمين من الشرق والغرب ؛ وهكذا بدأت هذه البلاد تتحرر ، فشملت الوحدة العربية في عصرهم البلاد من أقصى الشرق في العراق إلى أقصى الشمال حتى بلاد الروم إلى أقصى الجنوب حتى بلاد النوبة ، وقد عبر المتنبي عن ذلك خير تعبير في معرض مدح كافور الإخشيدى قائلاً :

يُدبِّرُ الْمَلِكُ مِنْ مِصْرٍ إِلَى عَدَنٍ إِلَى الْعِرَاقِ فَأَرْضِ الرُّومِ فَالنُّوبِ (١)

(١) ديوان المتنبي ، ج ١ ص ١٧١ .

نلاحظ أن الأخطار المحيطة بالعالم العربي كانت عاملاً هاماً من عوامل الوحدة القومية . واستطاعت هذه الوحدة أن تصد جحافل الغزاة من كل حذب وصوب في الشرق والغرب بعد أن توحدت الصفوف ، وأزيلت عوامل التفرقة والانقسام .

هكذا بدأت فكرة الوحدة للعربية إذ كانت معرقة في القدم ، لكنهما لم تلبث أن عدت عليها العوادي . فأوهنتها وما لبثت أن ظهرت من جديد حفظاً لكيانها ، فوقفت صامدة كالصخرة الصماء أمام الفرنجة والتتار . يؤيد ما نذهب إليه رأى أستاذى الكريم الدكتور محمد كامل حسين الذى يعتقد أن هذه الفكرة أشرفت في عهد نور الدين الزنكى عند ما شرع يوحد الجيوش الإسلامية تحت راية عربية واحدة^(١) ، لكنها - في الحقيقة - لم تتحقق إلا على يد البطل الأيوبي صلاح الدين حين ملك مصر والشام والجزيرة وغيرها^(٢) ، وجعلها دولة واحدة بعد أن طهر أرضها من رجس الغاصبين .

اتسعت هذه الدولة في عهد أخيه الملك العادل ، وأصبحت ممتدة من أقصى بلاد مصر والشام وإيمن والجزيرة إلى أهدنان كلها^(٣).

شعر الفرنجة بالخطر ، وخاف التتار من قيام هذه الوحدة الكبرى ، وحاولوا تحطيمها بكل سبيل ، وشاء الله أن يتم نوره ، فيمضى الأيوبيون ، ويخلفهم سلاطين المماليك الذين استطاعوا بالرغم من كل اختلافاتهم أن يجددوا الفتوح ويقهروا الأعداء في معظم المعارك التى نازلهم فيها ، ولولاهم لغدت هذه البلاد كلها تحت رحمة المغيرين من فرنجة وتتار .

لقد أوقفوا زحف التتار لأول مرة في تاريخهم - كما رأينا - بعد معركة عين جالوت على يد السلطان المملوكى سيف الدين قطز .

اتسع نطاق هذه الدولة العربية اتساعاً منقطع النظير في عهد السلطان الظاهر بيبرس ، وخيم الأمن على شتى بقاعها ، ويروى لنا المقريزى خلال ترجمته

(١) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ٨٦ ، ص ٨٧ .

(٢) الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٣٧ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٧٩ .

المستفيضة للظاهر أنه كان يركب للعب الكرة في الأسبوع يومين بمصر
ويوماً بدمشق ، وفي ذلك يقول سيف الدين المهمندار من أبيات يمدحه بها :
يوماً بمصرَ ويوماً بالحجازِ وبا شامِ يوماً ، ويوماً في قُرى حلبِ (١)
يدلنا على اتساعها أيضاً ما جاء في تقليد الخليفة العباسي للظاهر : « وقد
قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية
وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجدا » (٢).
لم تقف هذه الدولة العربية الكبرى عند هذا الحد ، بل تجدد في عهد
السلطان نفسه كثير من الفتوحات فشملت بلاد برقة والنوبة (٣) .
كانت القاهرة عاصمة كل هذه الأقاليم ، تنطلق منها الجيوش لتحررها ،
وتنير أمامها سبيل المجد والحرية والخلود .

(١) . السلوك ج ١ ص ٦٣٧ ، ٦٣٨ .

(٢) . المصدر السابق ص ٦٣٩ .

(٣) . المصدر السابق ص ٦٣٨ ..

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية

نحاول أن نحدد مجال البحث في الحياة الاجتماعية قبل أن نبدأ في تبيان مظاهرها بمختلف صورها واتجاهاتها ومناحيها ، لأن دراستها تتطلب منا الإفاضة في توضيحها ، لكن هذا ليس بالمستطاع مادامت طبيعة بحثنا الأدبي تتطلب منا أن نعرضها عرضاً شاملاً يجامى لنا حياة ابن نباتة في هذا المجتمع الذي نحن بصددده الآن .

نقف مع علماء الاجتماع ، ونحدد مفهومهم للحياة الاجتماعية وحدهم لها ، كما نستطيع من خلالها الوقوف عند كل مظهر من مظاهرها العامة . ويجمع هؤلاء العلماء على أن المقصود بها جميع نواحي النشاط الإنساني من العمل والدين والتعليم والاقتصاد والأمره والأعياد والأفراح واللهمو والمآتم والأحزان وشئى الأمراض الاجتماعية^(١) .

لن نستطيع الإمام بدراسة كل هذه المظاهر ، وسنكتفى بالتحدث عن الطبقات الاجتماعية في هذا العصر ، ووصف الوضع الاقتصادي العام ، وذكر النشاط الدينى ، ثم نختم حديثنا عن المظهر الحلقى ، وما يتعاق بذلك من أمراض اجتماعية وخلقية متفشية بين الناس عامة .

القسم الأول

الطبقات الاجتماعية

ليس النظام الطبقي السائد في هذا العصر بالشئ الجديد ، إذ أن أصوله الأولى صاعدة مع التاريخ القديم ومنحدرة مع تطوره المستديم . ومن العسير

(١) دراسات في الحياة الاجتماعية ص ٢ .

على الباحث أن يفسر الكثير من هذه المظاهر الاجتماعية .

اختلف العلماء قديماً وحديثاً في تصنيف طبقات المجتمع ، فمنهم من لا يرى فيه غير طبقتين كما هو الحال عند ابن خلدون ، وقد أشار إليهما في مقدمته المشهورة ، فذكر أن ملك مصر في عصر المماليك إنما هو سلطان ورعية ، فالسلطان من له رعية ، والرعية من لها سلطان^(١) .

ذهب هذا المذهب بعض المؤرخين المحدثين مثل لين بول (Lane Paul) فأشار إلى طبقتين كبيرتين : أولاهما طبقة المماليك ، وهي أقلية عسكرية ممتازة ، وثانيتهما : طبقة تمثل سائر فئات الشعب ، وهي محرومة من كل نفوذ وبُعيدة عن الحكم ، وليس بيدها غير بعض الوظائف الدينية والقضائية، وعليها العمل في فلاحه الأرض ودفع الضرائب الباهظة^(٢) .

ونهم من قسم هذا المجتمع إلى عدة طبقات ، نشير بشكل خاص إلى المقرئ الذي صنف في المجتمع سبع فئات ، أولاهما : أهل الدولة من المماليك ، وثانيتهما : أهل اليسار من التجار ، وثالثهما : متوسطو الحال من السوقه والباعة ، ورابعها : أهل الفلح ، وخامسها : الفقهاء وطلاب العلم ، وسادسها : أرباب الصنائع وأصحاب المهن ، وآخرها ذوو الحاجة والمسكنة^(٣) .

أما معاصر المقرئ بيلوتى الكريتي (Pilote de Grète) ، فإنه قسم المجتمع إلى ثلاث طبقات : طبقة المماليك وطبقة الشعب وطبقة الأعراب ، وقد أهمل المقرئ هذه الطبقة الأخيرة^(٤) .

يحسن بنا أن نأخذ بتقسيم المقرئ ، على أن نضيف إليه طبقتين أهملهما المؤلف المذكور ، على الرغم من أنهما تؤلفان طبقتين هامتين ، كان لهما أكبر الأثر في الحياة العامة ، وهما طبقة الأعراب التي أشار إليها بيلوتى ، وطبقة أهل الذمة من أقباط ويهود، وقد أسهموا إسهاماً فعالاً في شتى نواحي الحياة .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٨ .

(٢) دراسات في الحياة الاجتماعية ص ١٠ .

(٣) إغائة الأمة في كشف الغمة ص ٧٢ - ٧٥ .

(٤) دراسات في الحياة الاجتماعية ص ١٠ .

لن أتحدث طويلاً عن كل طبقة ، لكنني سأدرس الطبقات التسع ضمن خمس طبقات عامة كبرى .

السلطة الحاكمة

ذكرنا أن الأيوبيين حكموا جزءاً كبيراً من العالم العربي خلال فترة قصيرة من عمر الزمن ، وقلنا : إن المؤرخين قد اختلفوا في نسبهم ، فبعضهم يقول : إنهم عرب أمويون^(١) ، لكن أغلبهم يؤكد أنهم أكراد روائية من بلدة (دوين) في أذربيجان^(٢) ، وهو الرأي الصحيح على الأرجح .

حكم الأيوبيون البلاد ، ولم يكونوا في يوم من الأيام من المماليك الأرقاء ، بل كانوا أحراراً ، يشدون أزرهم بالمماليك لدعم حكمهم ، لكن هؤلاء استطاعوا أن يغدروا بهم ويديلوها دولتهم ، ويسلبوهم الملك .

ينحدر الحكام الجدد (المماليك) من أصول مختلفة منهم الأتراك والجرمانيين والروم والأرمن وغيرهم ، فالسلطان قطز هو ابن أخت ملك «مانجو بردى» الذي قضت عليه جيوش جنكيز خان^(٣) ، والسلطان قلاوون قفجاقى تركمى من قبيلة برج أعلى ببلاد القفجاق ، والسلطان كتبغا مغولى الأصل جاء أسيراً إلى مصر بعد موقعة حمص سنة ٦٥٨ هـ ، والسلطان لاجين أصله من البلاد الواقعة على شاطئ بحر البلطيق .

تلك هى أصول بعض سلاطينهم ، فكيف حال أتباعهم من المماليك الأرقاء . لقد كان السلطان يشتري عدداً منهم ، ويسلمهم إلى الطواشى المشرف على طبقة جنسهم^(٤) ، ويصبح في عداد الذين يؤهلون لخدمة مولاىهم .

ينال المملوك ثقافة خاصة منذ نعومة أظفاره ، فيربي تربية دينية على يد

(١) مفرج الكروب ج ١ ص ٤ ، والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٣ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢ ، ومفرج الكروب ج ١ ص ٢ .

(٣) مجلة كلية الآداب ، المجلد الرابع ج ١ (مايو ١٩٣٦ م) .

(٤) الخطط ج ٢ ص ٢١٨ .

فقيه خاص يعلمه القرآن والحديث ، ويشرح له أحكام الإسلام ، ويزوده بأداب الشريعة ، وعندما يبلغ مرحلة البلوغ يُربى تربية عسكرية عنيفة ، تشمل ركوب الخيل والفروسية والرى عند سفح جبل المقطم ، وعندما يبلغ أشده ، وتبدأ مواهبه الخاصة بالظهور يسلك في عداد الجنود المحاربين^(١).

إن المؤهلات الشخصية هي التي تهيئ صاحبها كما يتدرج في معارج الرقي ، فيصل إلى مرتبة الأمراء . أما الوظائف التي يليها هؤلاء فكثيرة منها نيابة السلطنة أو الأتابكية ، أو غيرها من المناصب التي خص بها الأمراء المماليك دون غيرهم ، وإذا ما ساعدت الظروف أحدهم وثب على السلطان فقتله أوخلعه وحل محله ، استبد الأمراء بأمور السلطان في كثير من الأحيان ، وكانوا مصدر السلطة ، وهم الطبقة الحاكمة التي تهيمن على شؤون الملك ، والدلالة على ذلك ما مر معنا خلال عرضنا المفصل للحياة السياسية من أن الناصر محمداً فضل التخلي عن السلطنة والذهاب إلى الكرك عندما شعر أن بيبرس وسلار يتحكمان بأموره ويتدخلان في شئونه ، ومن الطريف أن نذكر أن السلطان المذكور طلب بعض الحلوى والإوز ، فرد النائب سلار طلبه وقال لحامله على الفور : « وإيش يعمل السلطان بالإوز ، هو الأكل عشرون مرة في النهار »^(٢).

تدلنا هذه الطريقة على مبلغ تحكم الأمراء بأمور السلطان وتدخلهم حتى بأمر طعامه وشرايه ؛ وهكذا ساءت أمور المماليك ، فتخلوا عن كثير من صفاتهم الحربية ، وانغمسوا في الفن والمفاسد ، وتمادوا في الاعتداء على الناس ، وقد صور ابن تغرى بردى - وهو من المماليك - سوء حالهم ، فقال : « ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة ، يتقنون على الضعيف ويشرون حتى في الرغيف ، جهادهم الإخراق بالرئيس ، وغزوم في التبن والدريس »^(٣).

هذا لسان شاهد من أهلهم ، وهذا لسان شاهد آخر من غير أهلهم ، وهو

(١) السليك ج ٢ ص ٥٢٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٥ .

(٣) المصدر السابق ج ٧ ص ٣٢٩ .

المقریزی ، فقد صور حالهم بعد أن تخلوا عن طباعهم الأولى ، وقال : « ليس فيهم إلا من هو أزنى من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب » (١) .

هكذا كانت الطبقة الحاكمة في هذا العصر ، وهكذا صارت ، وبالرغم من كل ذلك فقد دافعوا عن البلاد بشجاعة منقطعة النظير ، وقفوا برباطة جأش أمام خطرين داهمين ، في الشرق والغرب ، وانتصروا في جل معاركهم ، وكفاهم فخراً أنهم خضدوا شوكة التتار الذين عرفوا هزيمتهم المنكرة على أيديهم ، ولاننسى أن التربية الدينية القويمة التي تلقوها عن الفقهاء كانت من العوامل الرئيسية في هذه الانتصارات الكبرى .

أئمة الدين

لقبهم المؤرخون بأهل العمامة ، وهم فئة متميزة من عامة الشعب ، فقهدت أمور الدين ، ودرست أحكامه ، ونالت - بالإضافة إلى ذلك - حظاً وافراً من العلم والثقافة ، فكسبت احترام الممالك الأغرأب ، لأنهم لم يعرفوا الإسلام إلا على أيديهم ، وهم في بركتهم يعيشون (٢) .

كان الممالك - كما ذكرنا - رجال حرب وسيف ، فهم يحتاجون لأيدي العلماء من رجال الدين ، يشدون بهم أزرهم ليصرفوا شئونهم ويدبروا أمورهم ، وقد نالت هذه الطبقة بعض امتيازات الطبقة الحاكمة ، فسمح لهم بركوب الجياد أسوة بهم .

نستطيع أن نقسم هذه الطبقة إلى فئتين : أولاهما وليت الوظائف العامة التي لا يؤبه لها كأمانة السر وكتابة الإنشاء ، والإشراف على سائر الدواوين ، نشير من هؤلاء إلى شمس الدين والد ابن نيابة ، إذ كان شاهداً في ديوان السلطان بيبرس . وثانيتهما قد احتفظت بمكانتها ، وعكفت على عبادتها ، وشغلت وظائف التدريس والقضاء والدين ، لكن كثيراً منهم كان يعرض عن تولي

(١) الخطط ج ٣ ص ٣٤٨ .

(٢) السلوك ج ٣ ص ٣٨٣ .

القضاء . ولعلمهم كانوا يعرضون لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قاض في الجنة وقاضيان في النار » . أما من تولى منهم القضاء فكان يشترط على السلطان بعض الشروط ، وكثيراً ما كانوا يصطدمون بالأمرء الحاكمين لتسكهم بأهداب الحق وإبائهم السير على هواهم ووفق رغائبهم ، وكثيراً ما كانوا يقفون أمامهم إذا رأوا منهم خروجاً على مصلحة المسلمين . وتعارضاً مع الدين الحنيف . وتجاوزاً عن أحكامه .

يُروى عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه ترك الدعاء على المنبر لسلطان دمشق الملك الصالح إسماعيل أحد الملوك الأيوبيين ، لأنه استعان بالصليبيين على خصومه من أهله الأقربين . وسمح لهم بدخول دمشق لاقتياع السلاح ، واتفق معهم على أن يسلمهم مدينتي صيدا والشقيف وغيرها من حصون المسلمين .

سجن الشيخ عز الدين لجهره بمعارضة السلطان ، وإهماله الدعاء له على المنبر ، لكنه أطلق سراحه بعد فترة وجيزة خوفاً من سخط الناس ونقمته عليه ، فترك دمشق ، وتوجه إلى القاهرة ، فأكرمه سلطانها نجم الدين الأيوبي وأحسن وفادته .

كان الشيخ عز الدين حانقاً على تولي المماليك السلطة . وقد وقف من الظاهر بيبرس ومن الأمرء موقفاً جباراً يسجله له التاريخ بكل فخر ، ويدل على ازدرائه لهم وتهاونه بأمرهم .

جمع الظاهر بيبرس الأمرء والعلماء ليأخذ البيعة بالسلطان ، لكن الشيخ عز الدين امتنع عن مبايعته ، وأعلن أنه لم يثبت لديه عتقُ بيبرس ، وقال له : « يا ركن الدين ، أنا أعرفك مملوك البندقدار » لم يجد الظاهر بيبرس بداً من إحضار الشهود الذين شهدوا له أنه خرج من ملك البندقدار . وأنه أصبح بعد ذلك حرّاً ، وحينئذ بايعه الشيخ بالسلطان .

لم تقف جرأته عند هذا الحد في تحدى السلطان ، بل بدأ بالأمرء المماليك أنفسهم ، وتصدى لبيعهم كما باع من قبل مولاهم الظاهر ، لأنه -

كما يرى - لم تثبت لديه الحجة أنهم أحرار ، وأعلن أن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين ، وصمم على ألا يصحح لهم بيعاً ولا شراءً ولا نكاحاً ، فعظم عليهم الأمر ، وهالم هذا الخطب ، فاضطربت أمورهم ، وتعطلت مصالحهم وتداعوا للاجتماع لدى نائب السلطنة . اجتمع أمراؤهم ، وبعثوا للشيخ بوفودهم ، يرجونه أن يخلى سبيلهم ، لكنه رفض طلبهم ، وقال لهم : « نعقد لكم مجلساً وننادى عليكم لبيت مال المسلمين »^(١) .

ساءهم إصرار الشيخ على بيعهم ، فرفعوا ظلامتهم للسلطان ، لكنه رفض أمره غير هيب ولا وجل ، فلقد بدأ به فحرره ، ومن واجبه أن يحرر أتباعه ، فرفض شفاعة النائب ثانية .

وقد أثار ذلك غضبه ، وقال : « كيف ينادى علينا هذا الشيخ وبييعنا ، ونحن ملوك الأرض ؟ ! والله لأضربنه بسيفي هذا » .

ركب سلالر النائب بنفسه ، وسار مع جماعته المماليك ، وقرع باب بيت الشيخ ، والسيف مسلوك في يده . خرج له ابن الشيخ ، وسرعان ما أخبر والده بما رآه فقال له : « يا ولدي أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله » . خرج الشيخ يقابل الموت ، فما رفع بصره الحديد على النائب حتى جمدت يده ، وهوى منها السيف ، وارتعدت فرائصه فرقاً ، وأخذ يجهش بالبكاء أمام أتباعه .

طلب من الشيخ أن يعفوه عنه وسأله أن يدعو له ، وقال له بعد ذلك : (إيش تعمل) ؟ قال : أنادى عليكم وأبيعكم .

- فم تصرف ثمننا ؟

- في مصالح المسلمين .

- من يقبضه ؟

- أنا .

انتصرت لإرادة الحق وتم للشيخ الجليل ما أراد ، ونادى على الأمراء

(١) عصر سلاطين المماليك ج ٣ ص ١٨٢ ، ورفع الإصر عن قضاة مصر (مخطوط)

ورقة ١٦٨ - ١٦٩ ، والمهل الصافي (مخطوط) ج ٢ ، ورقة ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

المالك واحداً واحداً ، وغالى في ثمنهم ، ولم يبيعهم إلا بالثمن الوافى ، فقبض ما تحصل لديه من بيعهم ، وصرفه في وجوه الخير وفي مصالح المسلمين ^(١) .

قضى هذا الشيخ الجليل نجه ، وانزاح بموته عن صدور الممالك وقر ثقيل ، إذ روى عن الظاهر أنه شاهد نعشه محمولاً على الأكتاف ، ومن خلفه المشيعون الذين لا يحصرهم عدّ ، فالتفت إلى بعض خواصه ، وأسر في أذنيهم قائلاً : « الآن استقر أمرى في الملك ، لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس ، اخرجوا عليه لانتزع الملك منى » ^(٢) .

ليس بغريب أن يدعو تلميذه تقي الدين بن دقيق العيد بسلطان العلماء محرر الأمراء والسلاطين من ربة الرق والعبودية ، وليس بغريب أن يصبح تلميذه هذا صلباً في الحق ، لا تلين له قناة ولا يغمز له جانب مما حمل سلاطين الممالك على احترامه وتوقيره .

يروى السيوطى أن السلطان لاجين لقيه مرة ، فقام وقبل يده ، فلم يزد على قوله : « أرجوها لك بين يدي الله تعالى » ^(٣) .

رفض القضاة في كثير من الأحيان - كما ذكرنا - ولاية القضاة ، ويروى عن ابن دقيق العيد أنه دُعِيَ لتولى هذا المنصب في عهد السلطان كتبغا ، فرفض قبول هذا المنصب حتى قالوا له : إن لم تفعل ولوا فلاناً وفلاناً لرجلين لا يصلحان للقضاء ^(٤) . كما رفض بعضهم تناول أجر على ذلك نخص بالذكر منهم القاضي عبد الرحيم البارزى ، فقد أنف أن يتناول أجراً من منصبه الذى وليه . احتفظ العلماء بمكانتهم الدينية واستطاعوا بما أوتوا من قوة أن يقفوا في طريق الحق ، وكانوا لا يخافون حتى من الطعن في شهادة السلطان نفسه أو رفض الشهادة رفضاً باتاً ، من ذلك ما روى عن السلطان الكامل أن القاضي ابن عين الدولة رفض شهادة سلطانه لأنه يعرف ولعه بجارية اسمها عجيبة ^(٥) .

أدت هذه الطبقة من رجال الدين خدمة كبرى للدولة ، لأنها كانت بحق تدافع عن مصالح الناس ، وهى من الشعب ، وتعمل من أجله .

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٨ . (٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٦

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٠١ . (٤) المصدر السابق .

(٥) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٧ .

عامّة الشعب

حاولت أن أنظّم في طبقة الشعب مختلف فئات الفلاحين والتجار والصناع وسائر العوام من رعايا ومتسولين وحرافيش ، لأن الطبقة الحاكمة تحقرهم وتزدريهم ، وتنتعهم بنعوت خاصة بهم .

يؤلف الفلاحون السواد الأعظم من عامّة الشعب ، ومهنة الفلاحة محترمة ، لأن الفلاح يعتبر قنّاً ملحقاً بالأرض ، يورث مع الإقطاع الذي يعمل فيه لدى سيده .

ساد نظام الإقطاع في العهد الأيوبي ، واستمر قائماً في عصر المماليك ، وقد صرح المقرئزي في خططه بذلك ، وأشار إلى أن الفاطميين لم يسلكوا هذا السبيل من قبل فقال : « لم يكن في الدولة الفاطمية ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية ، وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه ، وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم لا يعرف هذه الأبدّة التي يقال لها اليوم الفلاحة ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحاً قراراً ، فيصير عبداً قنّاً لمن أقطع تلك الناحية إلا أنه لا يرجو أن يباع ولا أن يعتق ، بل فن ما بقي ومن ولد له كذلك » (١) .

ليس هذا القول بحاجة لبيان ففيه الغناء ، للدلالة على هؤلاء المستضعفين في الأرض كما شاء ابن خلدون أن يدعوهم في مقدمته ، إذ ذكر أن الفلاحة من معاش المستضعفين ، ويخصّ متحلّها بالذلة والمسكنة (٢) ، فإذا أراد أحدهم أن يشتم الآخر نعته بكلمة فلاح ، وبذلك تطورت هذه اللفظة وأصبحت خاصة بالشمّ والسياب .

(١) الخطط ج ١ ص ١٣٨ .

(٢) مقامة ابن خلدون ص ٣٩٤ .

كما أن سادتهم الأمراء لم يكونوا يسمحون لهم بالتمتع حتى بأبسط مبادئ الحرية ، فقد روى المقرئى أن أحداً من الفلاحين لم يكن يجرؤ في أيامه أن يلبس مثزراً أسود ، ولا يركب فرساً ، ولا يتقلد سيفاً ، ولا يحمل عصا مجلّبة بحديد . أما الغلال التي سقاها الفلاح بعرق جبينه فمعظمها يذهب لأهل الدولة وأولى الجاه والسلطان ، وقد أدى هذا الأمر لخراب القرى وتشرذم الفلاحين في المدن ، يتسكعون في شوارع القاهرة وأزقتها ، ولا يعرفون لهم مأوى ، بل يتعودون حياة الحرافيش وغيرهم من المتسولين المعوزين .

« » «

أما فئة التجار فكانت أحسن حالا من سائر فئات الشعب ، وقد قرب السلاطين أنرياءهم ليمدوهم بالمال حين الحاجة واتخذوا منهم نداماهم وأصحابهم . وأنعموا على بعضهم بأمر طبلخانات ، لكن سائر التجار وهم الغالبية العظمى كانوا يتعاملون كأبناء الشعب عامة ، إذ كانت الضرائب تفرض عليهم بكثرة ، وكان الجباة لا يتورعون عن استعمال العنف في جمعها . يضاف إلى ذلك ما يحدث من مصادرة بين الفينة والفينة ، فيصادر نصف هذه الأموال أو ثلثها لتجهيز الجيوش الحاربة ، وكثيراً ما كان العلماء يحاولون دون فرضها ، ولا يسمحون إلا بأخذ المعقول للجهاد في سبيل الله .

نضيف إلى الفلاحين والتجار فئة ثالثة من عامة الشعب ، وهم أرباب الصناعات والمهن ، وكان هؤلاء يشكلون فيما بينهم نقابات خاصة ، تضم الأعضاء العاملين ، ولهم شيخهم الخاص . يدافع عن مصالح الأفراد الذين يمثلهم ، ويقوم بتهيئة الاحتفالات الخاصة عند قبول عضو جديد بينهم .

تلحق بهذه الطبقة كثيراً من الأفراد الذين كانوا يدعون العوام^(١) وقد ضاقت أمام هؤلاء سبل الرزق ، فلدجثوا إلى أخس الصناعات ، يعيشون بها في ضيق وفقر وضنك ، وكثيراً ما يقضون سحائب ليااليهم في الطرقات ، لأنهم لا يملكون منازل تأويهم ، نخص بالذكر منهم البلاصية والزعرة والمشاعلية والخرافيش .

(١) دراسات في الحياة الاجتماعية ص ٢٦ ، ٢٧ .

قبائل الأعراب

نقف أخيراً عند طبقة الأعراب ، وقد أفردناها في طبقة مستقلة ، لأن نمط حياتها يختلف عما نعرفه لدى الشعب عامة .

كانت منتشرة في معظم أنحاء البلاد ، وكانت مصدر خطر كبير على المدن والقرى والأرياف ، يشنون الغارات المفاجئة ويُخَلِّون بالأمن ، ويفتكون بالسكان الآمنين ، ويتهمزون أوقات الفيضان لشن غاراتهم ، ويتعرضون في بعض الأحيان لحجاج بيت الله الحرام ، بل كانوا لا يتورعون عن الغزو حتى في أوقات العدوان الخارجي .

ثار العربان في كثير من الأحيان لأنهم لم يكونوا راضين عن حكم سلاطين المماليك الذين هم بنظرهم غرباء عن البلاد . ويذكر لنا المقرئ الميرزى أنهم ثاروا في بلاد الصعيد وأرض بحرى سنة ٦٥١ هـ ، وقطعوا الطرقات ، وأوقفوا القوافل ، وخاف الناس شرهم ، فامتنعوا عن السفر ، وصرح أمير الثائرين « حصن الدين ثعلب الجعدى » قائلاً: « نحن أصحاب البلاد ، وأنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كنى أنا خدمنا بنى أيوب ، وهم خوارج خرجوا على البلاد » .

إنهم يأنفون من خدمة الترك ، وهم عبيد خوارج ، وكتبوا للناصر صاحب دمشق يستحثونه على القدوم إلى مصر .

تجمع حول الأمير حصن الدين ثعلب أكثر من اثني عشر ألف فارس ، وتجاوز الرجال الإحصاء لكثرتهم ، وقد توافدوا من أقصى الصعيد ، وأطراف بلاد البحيرة والفيوم والحيزة ، واجتمعوا حول الأمير ثعلب بناحية « دهروط صربان » وحلفوا له كلهم .

جهز لهم السلطان المعز أيبك الأمير « أقطاي الحمدار » ، والأمير أقطاي المستعرب في خمسة آلاف فارس . التحم الفريقان في معركة ضارية دامت من بكرة النهار إلى الظهر ، فر على إثرها ثعلب . وطلب من الملك المعز

الآمان ، فأمنه وحضر مع جماعته ، وكانت عدتهم ألقى فارس وستائة راجل ، فقبض عليهم ، ونصبت لهم الأخشاب ، من بلبيس إلى القاهرة ، فشتقوا جميعاً أما الأمير ثعلب فقد نفي إلى ثغر الإسكندرية .

لم يكن السلاطين يستخدمون معهم العنف في الغالب كما فعل المعز ، وإنما كانوا يحاولون استرضاءهم وتأليف قلوب مشايخهم حولهم وإجزال المال عليهم ليدفعوا بذلك شرهم ، ويأمنوا غضبهم^(١) .

أهل الذمة

هم أهل الكتاب من نصارى ويهود ولكل منهما فئاته الخاصة ، وقد أدخل صلاح الدين الأيوبي كثيراً من الأقباط في خدمته ، وسار خلفاؤه من بعده في السبيل نفسه ، لكن سلاطين المماليك أخذوا يضطهدونهم في بعض الأحيان ولعل الحروب الصليبية كانت من بعض العوامل التي تدفع الرعاع إلى التعرض لهم ، يضاف إلى ذلك رغبة المماليك في أخذ ما يملكون لأنهم عرفوا بالثراء ، كما أنهم حرّموا من العمل في الدواوين ، فصرفوا عنها بمرسوم السلطان الناصر قلاوون الذي أمر ألا يُستخدم واحد من أهل الذمة^(٢) سنة ٦٨٩ هـ .

والطريف لدى سلاطين المماليك أنهم أمرهم بتصغير عمدتهم ، فلاتتجاوز السبعة أذرع أو العشرة ، وخصت كل طائفة من أهل الذمة بلون خاص ، فعمام النصارى الأقباط زرقاء ، وعمائم اليهود صفراء ، وعمائم السامريين حمراء ، يضاف إلى ذلك أنهم منعوا من ركوب الخيل والبغال ، ومن قرع النواقيس وغير ذلك^(٣) .

أما سبب ما حل بهم فيروى ابن إياس أن أحد المغاربة جلس بباب القلعة ، فدخل عليه بعض كتاب الديوان بعمائمهم البيض ، فأكثر المغربي من توقيهم

(١) السلوك ج ١ ص ٢٨٦ - ٢٨٨ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٧٥٣ .

(٣) بدائع الزهور ج ١ ص ١٤٣ ، والسلوك ج ١ ص ٩١١ .

واحترامهم ظناً منه أنهم من المسلمين . وعندما علم أنهم من الأقباط دخل على الناصر محمد ، وارتأى عليه تغيير زيهم ليميزوا به من المسلمين . وقد أنشد الشيخ شمس الدين الطيبي يصف عمائم أهل الذمة قائلا :

تَعَجَّبُوا لِلنَّصَارَى وَالْيَهُودِ مَعَاً وَالسَّامِرِيِّينَ لَمَّا عُمِّمُوا الخِرَقَا
كَأَنَّمَا بَاتَ بِالْأَصْبَاغِ مَنْسَهَلَا نَسْرُ السَّمَاءِ فَأَصْحَى فَوْقَهُمْ ذَرَقَا^(١)

وأنشد في هذه المناسبة أيضاً الشيخ علاء الدين الوداعي قائلا :

لَقَدْ أَلْزَمُوا الْكُفَّارَ شَاشَاتٍ ذِلَّةً تَزِيدُهُمْ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ تَشْوِيشَا
فَقُلْتُ لَهُمْ : مَا أَلْبَسُوكُمْ عِمَامَاً وَلَكِنَّهُمْ قَدْ أَلْبَسُوكُمْ بِرَاطِيشَا^(٢)

أصدر كذلك السلطان الصالح أمراً سنة ٧٥٤ هـ ، ورسم ألا يستعان بيهودي أو نصراني في ديوان ، وأن تكون عمائمهم عشرة أذرع لا غير ، ولا يركبون مع مكاري مسلم ، وإذا مروا بالمسلمين ترحلوا ، ولا يدخلون الحمام إلا والصليب معلق في أعناقهم^(٣).

حاول أهل الذمة سنة ٧٠٩ هـ أن يعودوا لعمائمهم البيض أسوة بسائر المسلمين ، وقد تبني الوزير ابن الجليل أمرهم ، وتكلم في شأنهم ، وذكر للسلطان أنهم التزموا للديوان بسبعمئة ألف في كل سنة زيادة على الجالية . قنع أهل المجلس بالأمر ، لكن الشيخ ابن تيمية عارض ذلك ، وبقي الأمر على حاله^(٤).

لم يقتصر هذا الأمر على الرجال ، بل شمل النساء ، فأصدر السلطان الناصر حسن سنة ٧٥٧ هـ أمراً رسم فيه أن يكون إزار النصرانية أزرق ، وإزار اليهودية

(١) ذوق الطائر : رى بسلحه .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٩ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ١٤٣ ، وأعيان مصر (مخطوط) ج ٦ ، ق ٢ ، و ٢٣٥ .

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٩ ، وأعيان مصر (مخطوط) ج ٦ ، ق ٢ ،

. ٢٣٥

(٤) بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠١ .

(٥) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٥٣ ، وحسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٠ .

أصفر ، وإزار السامرية أحمر^(١).

مهما يكن من أمر فإن هذه الاضطهادات زوايع تحدث بين حين وآخر . فتأتى على مبانيهم وكنائسهم بالحرق والتخريب . من ذلك ما حدث سنة ٥٧٢١ إذ هدمت عدة كنائس . كانت هذه الأمور تخلق رد فعل لدى أهل الذمة ، فيقابلون الإساءة بمثاتها ، ويقومون بحرق بعض الأماكن المقدسة خفية^(٢).

أسهم أهل الذمة في خدمة الدولة كسائر أفراد الشعب ، ولم تمنعهم تلك الأمور التي أتينا على ذكرها من الاشتراك مع المسلمين في أعيادهم ، بل إن المسلمين أنفسهم كانوا كثيراً ما يشاركونهم في أعيادهم واحتفالاتهم الدينية . كما أسلم كثير من أهل الذمة رغبة في تولي المناصب العليا في الدولة ، وسجل لنا هذا العصر أسماء كثير من الوزراء الذين أسلموا رغبة في التمتع بما للمسلم من حقوق وما له من حريات . كما أسلم بعضهم الآخر رهبة خلال فترات الاضطهادات الدينية التي كانت تمر سريعاً ، وتعود الحياة بعدها لمجاريها الطبيعية .

القسم الثاني

الحياة الاقتصادية

يحتل الوضع الاقتصادي مكانة مرموقة في الحياة الاجتماعية ، وينبغي أن أبين حقيقة هذا الوضع الذي يشمل الناس جميعاً ، لأعلل الأسباب الرئيسية التي حدثت بابين نباتة وبغيره من الأدباء والشعراء إلى مغادرة أرض الكنانة حاضرة السلطان ، فولوا وجوههم شطر بلاد الشام وغيرها من أقاليم هذه الدولة العربية الكبرى .

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) السلوك ج ٢ ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

أجمع المؤرخون على أن الشعب بمختلف فئاته كان يشكو الفقر والحرمان ، ولو شئنا أن نتقصى هذه العوامل التي أدت إلى ذلك لوجدناها متعددة الجوانب وسوف نعرض لها ، وننوه بأهميتها .

الإقطاع

يعتبر الإقطاع الذي أشرنا إليه آنفاً خلال بحثنا عن الطبقات الاجتماعية أحد هذه العوامل الرئيسية ، ولم يكن هذا النظام موجوداً عندما دخل العرب أرض مصر ، كما صار الحال عليه في هذا العصر ، فاتبع نظام القبالات^(١) ، وهي الأراضي المقبولة بما عقد عليها من خراج ، فتقسم الأراضي أقساماً ، وتباع علناً ، ويأخذها من شاء من أهل مصر ، ويؤدى ما عليه من خراج في مواعيده . بدأ الإقطاع منذ العصر الأيوبي ، واستمر طوال هذا العصر والعصر الذي تلاه ، فأصبح نظاماً قاسياً لا يرحم المستضعفين من أصحاب الأرض ، وإنما كان الفلاح من جملة السوائم الملحقة بالأرض .

نظمت الأراضي في عصر سلاطين المماليك مرتين ، دعت في المرة الأولى بالروك الحسامي ، وفي المرة الثانية بالروك الناصري . جرى الروك الأول في عهد المنصور حسام الدين لاجين^(٢) . سنة ٦٩٧ هـ ، والروك الثاني في عهد الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ ، وكلاهما يقتصر على توزيع الإقطاعات على السلطان والأمراء والجنود الغرباء بنسب تختلف قليلاً أو كثيراً . أما الشعب وأما المعوزون فلم يكن لهم في ذلك نصيب ، لأنهم أقنان ملحقون بالأرض ، ولا كرامة لهم عند سادتهم الذين لا يقيمون لهم وزناً ولا يرفعون قدرأ .

الضرائب

وتعد الضرائب القادحة - بالإضافة للإقطاع - عاملاً آخر من عوامل فقر الشعب ؛ وقد أشار المقرئ في خططه إلى هذه الضرائب في معرض حديثه عن الروك الناصري ، وعدد منها ما يزيد على اثنتي عشرة ضريبة ، عدا الضرائب

(١) الخلط ج ١ ص ١٤٥ .

(٢) بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٧ ، ١٥٩ ، والخلط ج ١ ص ١٤٤ .

الاستثنائية الطارئة التي تقتضيها ظروف البلاد الخارجية .

أشار ابن إياس إلى ذلك ، فذكر أن السلطان المظفر قطز « أخذ من أهل مصر والقاهرة على كل رأس من الناس من ذكر وأُنثى ديناراً واحداً ، وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف شهراً واحداً ، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً ، وأخذ من الترك الأهلية الثلث من المال ، وأخذ على الغيطان والسواقي أجرة شهر ، وأحدث من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة ، فبلغ جملة ما جمعه من المال في هذه الحركة ستمائة ألف دينار » (١) .

أغنانا ابن إياس عن التعليق بعد أن دعا هذه الأعمال بأنها أبواب المظالم ؛ وهذا مثال واحد أوردناه تمثيلاً لا إحاطة ، فكيف يكون الحال لو استقمصينا المظالم كلها ؟ لو دخلنا أبوابها لوجدنا أشياء كثيرة ترهق كاهل الشعب ، وتجعله يعيش دوماً في قصر مدقع . لنترك أحد شعراء العصر الشيخ شهاب الدين المؤدب يتحدث بلسان الشعب الشاكي قائلاً :

وكيف يروم الرزق في مصرَ عاقلٌ ومن دونه الأثرُكُ بالسيفِ والترس ؟
وقد جمَعتهُ القِبْطُ . مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ لأنفسهم بالربعِ والثمنِ والخميسِ
فللتركِ والسلطانِ ثلثُ خراجِها وللقبِطِ نصفُ الخلائقِ في السديسِ
ونجاوز الإقطاع والضرائب لتحدث عن الكوارث الطبيعية والمصائب
التي حاقت بالبلاد ، وقد كثرت في هذا العصر بشكل مريع لم تشهد له البلاد
مثيلاً منذ مئات السنين .

الزلازل والطواعين

أما الطبيعة فقد زلزلت زلزالها ، وأخلفت نيلها في الفيضان والوفاء ، وتفشي
الطاعون بين العباد ، فأهلك الحرث والنسل ، وعم نتيجة لذلك القحط والغلاء .

(١) بدائع الزهور ١ - ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٣٤ ، ٣٣٦ .

لم تنقطع إذاً الزلازل طوال هذا العصر ، منها الزلزال الذى حدث فى العصر الأيوبي سنة ٥٩٧ هـ ، فوات من جرائه خلق كثير ، وقد راققه تفتشى وباء الطاعون واستفحال الغلاء^(١) . ولعل أهم زلزال وقع فى عصر المماليك سنة ٧٠٢ هـ ، وقد شمل الديار المصرية بأسرها ، واتصلت هزته بدمشق والكرك والشوبك من الديار الشامية . أحدثت هذه الهزة أضراراً بالغة فى ثغر الإسكندرية ، فهدمت سورها وأبراجها ، وطمغى الماء الأجاج على معظم أحياء المدينة ، وأغرق بساتينها وحدائقها ، أما فى القاهرة فهدمت جدران المسجد الحاكى ، ومثدنة مسجد الظاهر ، ومثدنة مسجد الصالح ، وبلغ من هولها وشدها أن تصدع جبل المقطم ، ولم يجد الناس بداً أمام هذا الموت إلا الهرب إلى الصحراء ، لأنهم ظنوا أن زلزلة الساعة شىء قريب .

أعقب هذا الزلزال ربح أسود ، يلفح وجوه الناس ، فأغمى على كثير منهم وظنوا أن لا نجاة لهم من هذا البلاء العظيم . وقد أشد بعضهم شعراً يصف زلزلة الساعة :

زُلزِلتِ الأَرْضُ ، فخافَ الورى وابتهلوا إلى العزيزِ الحكيمِ
فليذكروا مَسْعَ خوفِهِمْ قولَهُ : « زلزلةٌ (٢) الساعةِ شىءٌ عظيمٌ »^(٣)

ترك حديث الزلازل فهى كثيرة ، ونقف بعض الوقت عند الطواعين والأوبئة التى رافقت الكوارث الطبيعية ، ونكتفى بالتحدث عن أشد طاعون عرفه الناس فى هذا العصر سنة ٧٤٩ هـ .

يذكر ابن إياس أن الفناء وقع بالديار المصرية ، وعم أرجاء البلاد ، وكانت القاهرة تشيع كل يوم ما ينيف على عشرين ألف جنازة ، وقد أحصى من قضى فى شهرى شعبان ورمضان من هذا العام ، فبلغت سمعمائة ألف إنسان . ويذكر

(١) حنن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٢) ضمن الشاعر قوله تعالى : « إنا نزلنا الساعة شىء عظيم » سورة الحج ٢٢ / ١ .

(٣) السلوك ج ١ ص ٩٤٢ - ٩٤٤ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٦ ، وحنن

المحاضرة ج ٢ ص ١٠٩ .

أيضاً أنه لم يسمع من قبل بمثل هذا الطاعون الخفيف الذي غشي الأرض وأهلك العباد سبع سنين متواليات . ووصف الشعراء هذا الطاعون ، وأصبح يؤلف مع الكوارث الطبيعية غرضاً جديداً ، وهذا الكتاب حذو الشعراء ، فألفوا في وصفه الفصول والكتب ، أما الشعراء فنذكر منهم الصفدي الذي قال فيه :

لما افتقرت صحابي يا عامَ تسعَ أربعينا
ما كنتَ واللهِ تسعاً بل كنتَ سبعاً يقينا^(١)
شمل هذا الطاعون دمشق ، فأكثر أدينا ابن نباتة من التحدث عنه
ومما قاله فيه :

عُجِّعَ عن العُجْبِ ، فهذَى جَلُّقُ أصبحتُ منه على حالٍ ذميمٍ
لم تزلْ بالعُجْبِ حتى ضَرَبَتْ نَفْسَهَا منه بطاعونٍ عظيمٍ^(٢)
ومما قاله أيضاً :

سرَّ بِنَا عنْ دمشقَ يا طالبَ العِيْ شِ فما للمقامِ للمرءِ رَغْبَةٌ
رُحِصَتْ أَنْفُسُ الخلائقِ بالطا عونٍ فيها فكلُّ نَفْسٍ بحِجَّةٍ^(٣)
كما ألف ابن حجر كتاباً سماه «بذل الماعون في أخبار الطاعون» ،
وعقد غيره فصولاً في الكتب التي تشير إلى حوادث العصر.

الجلد والمجاعات

رافق كل هذه الحوادث انجاس الأمطار عن أرض الشام ، وشح مياه النيل ، وانخفاض في منسوبه ، أجذبت الأرض ، وتضاءلت الغلال ، وعم الغلاء ، وخيم شبح المجاعات على البلاد من أقصاها إلى أدناها . وتكرر انخفاض منسوب النيل ، وتالت المجاعات عاماً بعد عام ، فبعضها كان خفيفاً

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ١٩١ .

(٢) الديوان ص ٤٦٨ .

(٣) الديوان ص ٥٠ .

يقوى الناس على احتماله كالذى حدث سنة ٦٢٧ هـ ، فاقصر على ارتفاع الأسعار لتأخر وفاة النيل وانحباس الأمطار ، وكالذى حدث سنة ٦٤٣ هـ في ولاية الملك الصالح^(١) نجم الدين أيرب ، وشملت موجة الغلاء مصر والشام معاً^(٢) ، وكالذى حدث أيضاً سنة ٦٦١ هـ حينما شح ماء النيل وانعدمت بسببه الأقوات^(٣) .

أما المجاعات الحقيقية الكبرى فقد عرفتها البلاد مراراً ، وقد روى المقرئى أن أمرها قد تفاقم سنة ٦٩٥ هـ ، فأكل الناس بسببها الميتة من المواشى والكلاب وكثر موت الناس ، وصاروا يدفنون الميتى دون غسل ولا كفن^(٤) . ولم يقتصر الأمر على مصر ، بل شمل الشام أيضاً ، إذ دخل الشتاء ، ولم يقع المطر ، فأجذبت الأرض ، وجف العشب وصوح المرعى ، وارتفعت الأثمان ، وشملت هذه المجاعة الحجاز أيضاً ، فصل المؤلفون القدامى في وصف هذه المجاعة ، وذكرها نتائجها بالتفصيل^(٥) .

أدى هذا الوضع الاقتصادى السيء الذى ظهر في العصر الأيوبي ، وبلغ أوجهه في عصر السلاطين المماليك إلى حصول هذه المجاعات ، فجأر الناس بالشكوى ، ونخم الفقر على السواد الأعظم منهم ، وقد دفعهم في بعض الأحيان إلى مدهامة قبور الصالحين ، ونهب بعض الأماكن المقدسة ، كما حدث للمشهد النفسى^(٦) .

حاول بعض المصلحين الاجتماعيين دراسة الوضع الاقتصادى السيء ، فانبرى المقرئى يعالج ذلك في كتابه الفريد «إغاثة الأمة في كشف الغمة» ؛ وقد رأى بثاقب بصره أن أسباب الغلاء في مصر تعود لأسباب كثيرة ، وعرض من خلال ذلك للغلاء في الشام والحجاز وبقية وغيرها ، وصف حالة الناس في أيام المجاعات ، وما يعترضهم من خوف وحزن ، وتحدث عن نتائج ذلك ، فذكر «أنه صار غذاء الكثير من الناس لحوم بنى آدم حيث ألفوه»^(٧) .

(١) السلوك ج ١ ص ٢٤٠ . (٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٥٢ .

(٣) بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٣ . (٤) السلوك ج ١ ص ٨١٣ - ٨١٥ .

(٥) بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٣، ١٣٤ . (٦) السلوك ج ١ ص ٣٠٦ .

(٧) إغاثة الآفة بكشف الغمة ص ٣٠ .

وشرح لنا هذه الأزمات المتكررة ، وعللها بضعف السلطنة ، واستبداد الأمراء ، وجشع التجار ، وتلاعبهم بالأسواق ، وخبث الطحانين والخبازين ، وعرفاء الأسواق ، وهبوب الرياح الضارة بالقمح ونقصان ماء النيل ...

أما في الفصل الثاني من كتابه فيشير إلى العوامل الاجتماعية والاقتصادية التي سببت حوادث الغلاء ، وقد فصلها تفصيلاً دقيقاً وأرجعها إلى ثلاثة أسباب أوطأ انتشار الرشوة بين طلاب الوظائف ، فكانوا يستدينون الأموال للحصول عليها ، ثم يرهقون الناس بجمع المال لتعويض ما بذلوه ، وثانيها ارتفاع أسعار الأراضي الزراعية نتيجة لرغبة خدام الأمراء في التقرب إليهم بهذا العمل الظالم ، وقد هجر الفلاحون قراهم ، فتضاءلت الغلال وكانت سبباً في كثرة المجاعات ، وثالثها اضطراب العملة ...

نخلص من كل هذه الدراسة إلى القول إن هذا الوضع الاقتصادي يعد سيئة من سيئات هذا العصر ، فلا غرابة إذا كان ابن نباتة أمير شعراء عصره يشكو العوز في أرض كنانته ، ولا غرابة أبداً إذا رأيناه يغادر بلده الطيب نحو آفاق جديدة لعله يشيم برقاً كبيراً أبي الفداء .

القسم الثالث

الحياة الدينية

يحتل الدين لدى كل أمة مكاناً رئيسياً في حياة الجماعات ، وبخاصة في هذا العصر الذي تؤرخه ، تمهيداً لدراسة ابن نباتة . ولا بد لنا من وقفة عند المذاهب الدينية .

المذاهب الدينية

اعتمد الأيوبيون منذ بدء عهد صلاح الدين على المذهب الشافعي بعد إلغائهم المذاهب الإمامية والإسماعيلية الأخرى ، غير أنهم لم يفلحوا في القضاء

تماماً على ما خلفه الفاطميون ، لا لأن الشعب المصري كان يتمسك أو يؤمن بها الإيمان المطلق ، بل لأن الكثير من مظاهر التشيع والرواسب الدينية الأخرى قد طبعت حياة هذا الشعب بطابعها ، ودرجت مع كثير من عاداته . ومن الطبيعي أن يمر عليها حين من الدهر ليتم التخلص منها ، وقد تبقى بين عاداته دون أن يشعر بها .

يذكر شمس الدين اللمشقي أن بلدة «أصفون» القريبة من الأقصر قد وجدت فيها طائفة من الإسماعيلية والرافضة والإمامية والدرزية والحاكية في القرن الثامن الذي يضم الشطر الأعظم من حياة أديبنا ابن نباتة ، فلا نعجب إذا رأينا في شعره نفحات شيعية كما سنشير إلى ذلك في موضعه من هذا البحث . استمر تيار التشيع قوياً طوال العصر الأيوبي ، وجاء عصر سلاطين المماليك ، فاحترموا العلويين بما عرف عنهم من حب لآل البيت ، ويميزهم بعلامة خضراء في عمامتهم^(١) تكريماً لهم ، وكان معظمهم إذ ذاك من الشيعة الزيدية .

كان هذا في بلد حكمهم ، لكنهم فقلوا احترامهم عندما بدأ العلماء بتكفيرهم ، وبلغ الأمر منتهاه حين قام أحد كبار العلماء في هذا العصر وهو فخر الدين بن تيمية ورمى طوائف الشيعة بأنهم أكفر من اليهود والنصارى ، وأقنى بمحاربتهم والقضاء عليهم^(٢) .

أما سلاطين المماليك فساروا على سنة علمائهم ، فبدأوا باضطهادهم بعد أن حدثت الثورات الشيعية ، نشير منها بصورة خاصة إلى أشدها خطراً .

قام جماعة من السودان والغلمان والركبديارية^(٣) سنة ٦٥٨ هـ بثورة على المماليك ، وقد تزعم هذه الجماعة الثائرة زاهد متعبد ، يسكن قبة في أعلى الجبل ، وكان يهدف من هذه الثورة إلى الاستيلاء على السلطان ، وتوزيع الإقطاعات على أتباعه الثائرين ، ونشر المذهب الشيعي . بدأت ثورتهم

(١) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢١٦ .

(٢) دراسات في الحياة الاجتماعية ص ١١٣ .

(٣) الركبديارية : هم الذين يحملون الفاشية بين يدي السلطان في المواكب الرسمية كوكب العيد

وغيره . وهم تابعون للركاب خاناه . صبح الأعشى : ج ٤ - ص ٧ ؛ والعصر المماليكي ص ٤٢٠ .

بالسير في شوارع القاهرة يهتفون : (يا آل علي) ، فاقترحوا دكاكين السيوفيين واستولوا على ما فيها من سلاح ، واقتحموا الاصطبلات ، فاقتادوا منها الجياد ، غير أن عساكر الظاهر بيبرس أحاطوا بهم ، وصلبهم ، وعلقوا جذوعهم المصلبة خارج باب زويلة^(١) .

إحياء الخلافة العباسية

حاول الظاهر بيبرس إحياء الخلافة الإسلامية بعد أن قضى عليها التتار ليدعم حكمه - كما أشرنا إلى ذلك خلال عرضنا الجانب السياسي من العصر - ولا سيما أنه قد مضى على مقتل الخليفة العباسي في بغداد ثلاث سنين ونصف . تمت مبايعة المستنصر بالله خليفة للمسلمين خلفاً للخليفة المستعصم بالله ، وقد جرت البيعة له في يوم مشهود ، وكان إحيائها في أرض الكنانة نصراً كبيراً للسنة ومذاهبها الأربعة ، وإحياء للحركة الفكرية التي تابعت نشر نورها من القاهرة .

أوضح السيوطي أهمية بعث الخلافة العباسية من مرقدها ، فذكر أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الإسلام فيها ، وعلت معها السنة ، وغفت منها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ومحط الرجال الفضلاء^(٢) .

عدّ المذهب الشافعي المذهب الرسمي للدولة ، وقد تميز قاضي هذا المذهب منذ العصر الأيوبي بسميزات خاصة ، فكان يلبس الطرحة في المواكب ، كما كان القاضي الوحيد الموكل بالخطابة والصلاة بالسلطان^(٣) .

أما في خارج القاهرة فيمثلته نواب آخرون يتولون عنه الحكم^(٤) .

تختلف منزلة المذاهب السنية الثلاثة الأخرى بالنسبة للمذهب الشافعي ، إذ يليه المذهب الحنفي فالمذهب المالكي فالمذهب الحنبلي . لم يكتف الظاهر

(١) السلوك ج ١ ص ٤٤٠ . (٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٦٥ . (٤) المصدر السابق .

بالقضاء على ثورة العلويين ، وإحياء الخلافة من جديد بل اهتم بالمذاهب السنية الثلاثة الأخيرة ، ليحد من استفحال المذهب الشافعي ، بعد ما لمسه من طغيان سلطان قضائه على كثير من أموره ، وبخاصة منها تجاوز هؤلاء ذلك الموقف للوقوف في وجهه . حدث هذا سنة ٦٦٠ هـ عندما عزل قاضي القضاة الشافعي برهان الدين السنجاري. وأعاد القاضي عبد الوهاب ابن بنت الأعز وطلب منه أن يستنيب عنه ثلاثة قضاة من المذاهب الثلاثة الأخرى ، أولهم يمثل المذهب الحنفي ، وهو صابر الدين بن سليمان ، وثانيهم يمثل المذهب المالكي ، وهو شرف الدين عمر السبكي ، وثالثهم يمثل المذهب الحنبلي ، وهو شمس الدين محمد بن إبراهيم^(١) .

أتبع الظاهر هذه الخطوة بخطوة أخرى ، توخى منها أن يجعل للمذاهب السنية الثلاثة الأخرى كياناً خاصاً ، وقد أدى هذا الأمر إلى تعدد القضاة بالإضافة إلى القاضي الشافعي ، انتهز الظاهر العداوة القائمة بين القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز والأمير جمال الدين أيدغدي العريزي ، وقد كان هذا الأمير يحط من قدر القاضي لتشدده في الأحكام ، وتوقفه في كثير من القضايا التي لا توافق مذهبه ، وقد حدث ذات مرة في مجلس السلطان نقاش وتنافر بين القاضي والأمير بسبب قصة رفعها بنات الملك الناصر . وفي ختام المجلس قال الظاهر للقاضي ابن بنت الأعز : « يا قاضي ، هكذا تكون القضاة ؟ » ، كما حدث في المجلس نفسه نقاش حول كثير من الأمور الأخرى ، وكأنما كان هذا الأمر مبيتاً بليل ، فقال الأمير : « يا قاضي مذهب الشافعي لك ، ونولي من كل مذهب قاضياً » .

تبنى السلطان رأى الأمير فولى الشيخ صدر الدين بن سليمان قضاء الحنفية ، وشرف الدين عمر السبكي قضاء المالكية ، والشيخ شمس الدين محمداً قضاء الحنابلة^(٢) .

(١) السلوك ج ١ ص ٤٧١ ، وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٩ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، والنجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٢١ ، ١٢٢ ،

٢١٨ ، وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٩ ، ١٠٠ .

حاول الظاهر بيبرس بعد هذه الخطوة الجريئة القضاء على كل المذاهب الدينية الإسلامية الأخرى ، عدا المذاهب السنية الأربعة ، فأمر سنة ٦٦٥ هـ ألا يُولى قاض ، ولا تقبل شهادة شاهد ، ولا يرشح لإحدى وظائف الخطابة أو الإمامة أو التدريس مالم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب الأربعة^(١) .

اشتد الصراع بين هؤلاء القضاة ، فأشار السيوطي إلى أن أهل التجربة من الشافعية يعتقدون أن هذه الأقاليم المصرية والشامية والحجازية متى كان البلد فيها لغير الشافعية خرب ، ومتى قدم سلطانها غير أصحاب الشافعي زالت دولته سريعاً ، وكأن هذا السر جعله الله في هذه البلاد ، كما جعله الله للملك في بلاد المغرب ، ولأبي حنيفة فيما وراء النهر^(٢) .

يعتقد هؤلاء كذلك أن كل حاكم يتولى عرش مصر ولا يكون شافعيًا فإنه سيقتل سريعاً ، ويستدلون على ذلك أن كل سلاطين المماليك كانوا من أتباع الإمام الشافعي إلا قطر فكان حنفيًا ، ومكث يسيراً وقتل بعد ذلك ، لكن الواقع يثبت - كما نرى - أن معظم سلاطين المماليك قتلوا أو خنقوا أو أغرقوا ، وندر منهم من مات حتف أنفه .

ازدهار التصوف

ازدهر التصوف في هذا العصر، وتطور تطوراً خطيراً أخرجه في بعض الأحيان عن الدين . وما دما الآن في معرض الحياة الدينية فالأحرى بنا أن نجلى هذا المظهر الديني الهام ، ولا سيما أننا نلمح في أدب ابن تيمية من المعاني والألفاظ ما يشعرنا بطغيان هذه الموجة الصوفية العارمة التي شملت بعض السلاطين وكثيراً من العلماء الذين أيدوهم ، ونظروا إليهم نظرة الإجلال والاحترام . قال الشيخ تاج الدين السبكي يمدحهم : « حياتهم وبيئاتهم ، وجمعنا في الجنة نحن وإياهم »^(٣) .

يجسّن بنا - ونحن نقدم للدراسة - أن نعرض لأهم العوامل التي جعلت التصوف ينتشر هذا الانتشار السريع الواسع بين عامة الشعب ، فلما أنعمنا النظر بالأخطار الخارجية لكان لنا منها ما يجعلنا نعتقد كل الاعتقاد أنها كانت

(١) الخطوط ٤ ص ١٦٦ (٢) حمن المحاضرة ج ٢ ص ١٠٠٠ .

(٣) معيد النعم ص ١٢٩ .

من العوامل الرئيسية في طغيان الموجة الصوفية . فالتار القادمون من الشرق قوضوا معالم الحضارة الإسلامية في بغداد ، وقتلوا الخليفة والعلماء ، وزحفوا بجيوشهم يفتحون أبواب مصر والشام . والغريون يهددون الأندلس العربية فردوسنا المفقود ، والصليبيون يعيثون فساداً في سواحلنا وتغورنا ويهددون بيت الله الحرام .

يضاف إلى هذا الخطر الجاثم على البلاد ما انتشر فيها من كوارث وما أصابها من أوباء وطواعين ، وما انتابها من مجاعات . كل ذلك دفع الناس في طريق الدين تحت ظلال التصوف ، ينشدون لديهم رحمة الله وعفوه .

استمد التصوف عناصره الأولى من الإسلام . وكان المتصوفة المسلمون الأول يقصرون في زهدهم على العبادة والتفكير في الله وفي خلقه . كما كانوا يكتبون شهوات النفس ورغائبها ، ويرضون من العيش بما يسد الرق ويقيم الأود . استغل العلويون التصوف ، فاستمد المتصوفة منهم كثيراً من مذاهبهم وانجاساتهم ، لأن العصر الفاطمي شجع على التصوف ، وأصبح مطبوعاً بطابع التشيع ، وقد ذكر ابن خلدون ذلك ، وقال : إن كثيراً من العقائد الأساسية في التصوف إنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم . كذلك فإن المتأخرين منهم قد آمنوا بالكشف وفيما وراء الحس ، وتوغل في ذلك كثير منهم ، فذهب إلى الإيمان بالحلول والوحدة^(١) .

وقد حاول صلاح الدين بدوره أيضاً أن ينشر التصوف السني ، ليستطيع أن يقضي على بقايا المذهب الشيعي . وهكذا تطور التصوف من شكله البسيط في العصر الأيوبي إلى اتجاه خاص . له نظامه وطرقه وتعاليمه ، وبخاصة عندما استمد من الديانات الأخرى الشيء الكثير ، ونما أخذ من الفلسفات القديمة المنتشرة في ذلك العصر ..

ساعد سلاطين المماليك أيضاً على نشر التصوف ، وكأنهم كانوا يريدون من ذلك إلهاء الشعب عن وضعه وتركه تحت رحمة الأقدار ، تعيث به السلطات الحاكمة تحت ستار من الدين . اعترفوا بهم كطائفة دينية خاصة . وكان

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٣ .

شيخ كل فرقة يعين من قبل السلطان . فيخلع عليه ، ويتزل من القلعة في حفل كبير ، يحيط به جميع فقراء طائفته^(١) .

انقسم الصوفية إلى طوائف متعددة ، ولكل منها شعارها الخاص بها ، فالأحمدية شعارها اللون الأحمر ، والرفاعية شعارها اللون الأسود ... أما أشهر المتصوفة في القرن السابع الهجري فهم أبو الحسن الشاذلي المرسي وأبو القاسم القباري . والسيد أحمد البدوي وغيرهم كثير^(٢) .

سمى الصوفيون أنفسهم بالفقراء ، ويؤيد هذه التسمية ما ذهبت إليه من أن الوضع الاقتصادي السيء كان من جملة العوامل المساعدة على انتشار هذه الظاهرة الدينية . ويكفي أن يلبس رئيس الطائفة أى فرد خرقه تصوف ليصبح في عداد أعضائها العاملين ، وعلى العضو المنتسب أن يطيع رئيسها طاعة عمياء ، وأن يفصح له عن كل ما في نفسه .

أصبح المتصوفة بما أجرى عليهم من رزق متكئين على غيرهم ، فكانوا يقيمون في أماكن خاصة ، زودت بمختلف ما يحتاجون إليه في حياتهم اليومية ، وقد دعيت هذه الأماكن بالخوانق والربط والزوايا .

لن نطيل الوقوف عند التصوف المعتدل الذي لم يخرج عن الإسلام ، وإنما نقف طويلاً عند بعض الطوائف التي تطرفت في آرائها ومذاهبها ، فاستمدت من المسيحية كثيراً من مبادئها ، وقد ذكر نيكلسون أن كثيراً من نصوص الإنجيل ومن الأقوال المنسوبة إلى السيد المسيح عليه الصلاة والسلام مقتبس في أقدم تراجم الصوفية^(٣) . كما أنهم استمدوا من الغنوصية بعض مبادئهم في المعرفة ، ومن البوذية كثيراً من العادات التي لاتزال منتشرة ، ومنها استعمال السبح التي عرفت عند الأجبار البوذيين^(٤) ، أدى هذا التطرف إلى نشوء جماعات أطلق عليهم اسم المجاذيب أو الدراويش ، وقد ذاع أمرهم بما كانوا يقومون به من أعمال غريبة ، وما يتخذونه من أزياء عجيبة .

(١) بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٨ . (٢) دراسات في الحياة الاجتماعية ص ١١٨ .

(٣) الصوفية في الإسلام ص ٢٢ . (٤) المصدر السابق .

القلندرية والبكتاشية

قد يكون من الطريف أن أعرض لبعض الطوائف الصوفية المتطرفة التي عرفت في عصر ابن نباتة ، فأذكر منها طائفتين : القلندرية والبكتاشية .

أما القلندرية فتتسب إلى عربي أندلسي يدعى « قلندر يوسف »^(١) ، وقد ظهر مؤسس هذه الطائفة في دمشق سنة ٦١٠ هـ ، وكان أتباعه يخلقون شعرهم ولحاهم وحواجبهم وأهداب أعينهم ، لكن السلطان الناصر حسناً أمر سنة ٧٦١ هـ بعد ما رأى من استفحال أمرهم « بإلزامهم بزى المسلمين وترك زى الأعاجم والمجوس ، فلا يمكن أحد منهم من الدخول إلى بلاد السلطان حتى يترك هذا الزى المبتدع واللباس المستنقع ، ومن لا يلزم بذلك يعزرّ شرعاً ويقام من قراره قلعاً »^(٢) .

انتقد ابن كثير هذا القرار ، وقال : كان من اللائق أن يؤمروا بترك الحشيشة ، وإقامة الحد على المدمنين عليها^(٣) إذ نسب إلى هذه الفرقة تعاطي الحشيش ، وأصبح اسمها بالتالي يطلق عليه . نشير من هذه الفرقة إلى الصوفي الكبير أبي سعيد بن أبي الخير الذي يذكر أنهم لن يؤدوا فروضهم الدينية حتى يجعلوا كل مسجد حطاماً ، ولن يظهر المسلم حتى المسلم مالم يصر الإيمان والكفر واحداً^(٤) .

وأما البكتاشية فطائفة صوفية متطرفة شيعية عاصرت القلندرية ، وقد تطرفت كثيراً في آرائها وسلوكها حتى خرجت عن الإسلام . تنسب هذه الطائفة إلى مؤسسها الحاج بكتاش ، وهو ولي من أولياء المسلمين ، ظهر في النصف الأول من القرن الثامن الهجري ، وقد استمدت هذه الطائفة كثيراً من تعاليمها من المسيحية ،

(١) الموسوعة الإسلامية ج ٣ ص ٦٧٦ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٧٤ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الصوفية في الإسلام ص ٨٨ .

وقد عرف عندهم بما يشبه العشاء الرباني : فكانوا يوزعون في اجتماعاتهم الخاصة النبيذ والخمر والجبن . ويعترفون لشيخهم الأكبر بخطاياهم ، ويطلبون منه الغفران . آمن هؤلاء أيضاً بالتثليث فالله أولاً ومحمد ثانياً وعلى ثالثاً . كما شاب عقيدتهم الإيمان بتناسخ الأرواح . وخلصوا من ذلك كله إلى القول بالمساواة بين الأديان السماوية وعدم جدوى الشعائر الدينية . انتشرت هذه الطائفة في كثير من نواحي العالم الإسلامي ، ولم تكن خاصة بهم في جبل المقطم^(١) .

نخلص بعد ذكر هاتين الطائفتين إلى القول : إن التصوف خرج من مبادئه الأولى لدى بعض هذه الفئات المتطرفة ، وقد روى عنهم أنهم كانوا يتخذون الحرافيش وغيرهم أصدقاء لهم ، كما كانوا يتخذون الآلات الموسيقية في حلقات الذكر . وانقلبت زواياهم إلى مكان يرتاده أصحاب المغاني ، فيشربون الخمر ، ويتعاطون الحشيش . وقد أصبح خاصة بهم مقروناً باسمهم ، فقاوا : حشيشة الفقراء^(٢) ، وقد ذكر العيني أن أحد الصوفية قال يتغنى بالحشيش :

وخضراء لا الحمراء تَفْعَلُ فِعْلَهَا لها وَثَبَاتٌ في الحَشَا وَثَبَاتٌ
تُوجِّجُ ناراً في الحَشَا وهي جَنَّةٌ وَتُبْدِي مَرِيرَ العَيْشِ وهي نَبَاتٌ^(٣)

نكتفي بهذا القدر في الحديث عن حشيشة الفقراء ، فلنا إليها عودة في الأمراض الاجتماعية في هذا العصر .

الصراع الديني

امتازت الحياة الدينية بالصراع بين الدين والإلحاد ، وقد أشار ابن حجر في الدرر إلى بعض الذين قتلوا بسبب استهتارهم بأمور الدين وتماديهم في الإلحاد والكفران . أضيف إلى هذا الصراع صراعاً آخر بين رجال الدين أنفسهم وبين المذاهب المختلفة ، نذكر من ذلك ما حصل للشيخ تقي الدين

(١) الموسوعة الإسلامية ج ٤ ص ٣٧ - ٤٠ .

(٢) السلوك ج ٤ ص ٣٣٩ .

(٣) دراسات في الحياة الاجتماعية ص ١٧١ .

ابن تيمية مع المتصوفة الأحمدية الذين كانوا يحظون بتأييد نائب السلطنة ، وقد وقف من بعض عقائدهم ومشايخهم موقفاً صلباً ، أدى لعقد ثلاثة مجالس لمناقشة موقفه من هؤلاء ، وقد حبس في القاهرة بقلعة الجبل ، ونفى إلى الإسكندرية ، وعلى الرغم من ذلك كله استمر في موقفه الصلب يناهض أعداءه من العلماء الحاقدين والحاسدين حتى زال حكم بيبرس الجاشنكير ، وعاد الناصر محمد . فطلب من الشيخ ابن تيمية أن يحضر من الإسكندرية ، فأحضر معززاً مكرماً ، وصفح عن أعدائه من إخوانه العلماء^(١) . هذا في مصر ، أما في الشام فقد ختمت حياته وهو رهن محنة مجسه .

لم يقتصر الصراع الديني على المسلمين أنفسهم بل تعداهم ، فشمّل أهل الذمة من يهود ونصارى . تلك هي صورة عابرة عن هذا الصراع الديني ، والجدير بالذكر هنا أن نشير إلى الأعياد الدينية التي كانت تقام في مختلف المناسبات ، كالاحتفال بعيدى الفطر والأضحى ، وإقامة الموالد النبوية في شهر ربيع الأول ، وكانت هذه الاحتفالات تفوق حد الوصف والتصور ، وتبذل في سبيل إقامتها الأموال الكثيرة ، وتوزع الحلوى وغير ذلك .

نضيف إلى هذه الأعياد الدينية أعياداً أخرى تاريخية نشير منها إلى الاحتفالات الكبيرة في كسر الخليج وما يرافق ذلك من طقوس خاصة بعد أن يتم وفاء النيل . كما نشير أخيراً إلى أعياد النيروز وغيرها من أعياد الطوائف الأخرى التي كان الشعب يشارك بها أهل الذمة .

القسم الرابع الحياة الخلقية

أحاول في ختام حديثي عن الحياة الاجتماعية أن أتحدث عن الأخلاق في هذا العصر الوسيط ، وأقف بصورة خاصة لأبين ما اعتور هذه الأخلاق من أمراض اجتماعية خطيرة ، لعل أبرزها البغاء والفسق .

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٦ ، ٤٥ ، ٥٣ .

البغاء والفسق

ليست المفاسد فى هذا العصر بشىء جديد، بل كانت متفشية منذ العصر الفاطمى ، وقد ذكر القاضى الفاضل أنه رأى بمصر الفاطمية من البغى ومن المعاصى ومن الجهر بالفسق والزنا وغير ذلك ما لم يسمع به أو يعهد مثله^(١). اعترف سلاطين المماليك بالبغاء ، واستوفوا من البغايا ضرائب مقررة^(٢)، واستمر الحال على هذا المنوال حتى عمّت المفاسد أرض مصر بأكثر مما شاهده القاضى الفاضل فى العصر الفاطمى .

كانت المواخير قائمة تعج بالبغايا، والخانات تطفح بالحواطى والمستهرين، والخانات ساهرة ليل نهار ، يتردد عليها روادها . يضاف إلى ذلك انتشار الخلاعة والمجون مما لم نعهد له مثيلاً فى التاريخ .

الخمر والحشيش

أصبح الإدمان على الخمر والحشيش معروفاً لدى معظم الناس عامتهم وخاصتهم ، واستعاضوا به عن الخمر لأنها محرمة نصاً فى الإسلام ، وفضلوه عليها، وأنشدوا فيه القصائد ، وما زاد الأمر سوءاً أن القاضى جمال الدين الحلبي أفتى بجواز أكل الحشيش بالإضافة إلى فتواه بجواز الربا^(٣). استهوت آفة الحشيش حتى العلماء أنفسهم، نذكر منهم ابن الصاحب^(٤) قريب القاضى ابن بنت الأعز، وقد كان

(١) الخطط ج ٣ ص ٣٧ ، ٣٨ . (٢) السلوك ج ٣ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٣) رفع الإصر (مخطوط) و ٢٧٩ .

(٤) علم الدين أحمد بن الصاحب صنّ الدين يوسف ، المعروف بابن الصاحب ، وكان نادرة زمانه فى الخلاعة والمجون والهزل ، يتعم بشروط طويل جداً يقيق العرض ، ويصحب الحرافيش ، وينشد الأشعار والبليغات . والمعروف عنه أنه عكف فى صباه على العلم فحصل ودرس ، وأنه يتمتع بالفضيلة والذكاء وحسن التصور ، إلا أنه تخلى عن وقاره ، وأطلق طباعه على التكدي ، وصار يركب فى قفص على رأس حماك يدور به فى أماكن النزء والقرج . توفى سنة ٥٦٨٨ هـ =

شيخاً عالماً ، فتعاطى الحشيش ، وتخلّى عن وقاره ودينه ، ووافق يدمن عليه ،
لأنه لم يرض تحريم العلماء ،

في خُمارِ الحشيشِ معنى مرّامى يا أهيلَ العقولِ والأفهامِ -
حرّموها من غيرِ عقلٍ ونقلٍ وحرامٌ تحريمٌ غيرِ الحرامِ (١)

يدلنا البيت الأخير على أن انتشاره يرجع في الأصل لعدم ورود نص
نرم الحشيش ، لكن العلماء أجمعوا على تحريمه باعتباره مسكراً ، فحرّم
كما حرمت الخمر قياساً عليها . فإذا اعترض هذا العالم الماجن على تحريم
الحشيش ، فإذا يقول إذاً عامة الناس ، وبخاصة منهم فقراء الحشيشة من
المتصوفة ، إذا جاز لنا أن نضيف المضاف إليه ؟ ولا بأس علينا أن نستمع
للعالم الماجن يصف لنا لهوه وسكره :

يا نفسُ ميلي إلى التّصايبي فاللهوُ منه الفتنى يعيشُ
من سكرٍ يومٍ ولا تملئى (٢) إن أعوزَ الخمرُ فالحشيشُ (٣)
وكان كثيراً ما يجمع بينهما (الخمر والحشيش) فلا يهتدى من السكر :

جمعتُ بينَ الحشيشِ والخمرِ فرُحْتُ لا أهتدي من السُّكرِ
يا مَنْ يُريني لبّابِ مدرستي يربحُ والله غايَةَ الأجرِ (٤)

هال الظاهر بيبرس ما رآه من انحلال خلقي ومفاسد اجتماعية في مصر
والشام وغيرهما فأصدر أمراً عممه في كل الأقاليم بهدم المواخير وإغلاق

= المنهل الصافي (مخطوط) ج ١ و ١٧٤ ؛ والنجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٧٨ - ٣٨٠ .

(١) البداية والنهاية ج ١٣ في ٣١٤ ؛ والمنهل الصافي (مخطوط) ج ١ و ١٧٥ ؛

والنجوم الزاهرة ج ٧ في ٣٨٠ .

(٢) الشطر الأول من البيت الثاني (ولا تملئ من سكر يوم) وهو غير مستقيم الوزن ،
والصواب بعد التقديم والتأخير (من سكر يوم ولا تملئ) كما أثبتناه ، ولعل ذلك من وهم الشاعر
أو عبث الناسخ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣١٥ ؛ والمنهل الصافي (مخطوط) ج ١ و ١٧٤ ؛

والنجوم الزاهرة ج ٧ في ٣٨٠ .

(٤) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣١٥ .

الحانات ، وإهراق الخمر ، والطريف أنه لما وردت مراسم التحريم لقاضى الإسكندرية قال :

لَيْسَ لِإِبْلِيسَ عِنْدَنَا أَرَبٌ غَيْرُ بِلَادِ الْأَمِيرِ مَأْوَاهُ
حَرَمَتَهُ الْخَمْرَ وَالْحَشِيشَ مَعًا حَرَمَتَهُ مَاءَهُ وَمَرْعَاهُ
أما أبو الحسين الجزار فقد أسف على تعطيل كوبه :

قَدْ عَطَّلَ الْكُوبُ مِنْ حَبَابِهِ وَأَخْلَى الشَّعْرُ مِنْ رُضَابِهِ
وَأَصْبَحَ الشَّيْخُ وَهُوَ يَبْكِي عَلَى الَّذِي فَاتَ مِنْ شِبَابِهِ^(١)
طبق أمر السلطان بشدة متناهية ، ويروى ابن إياس أنه أحضر ابن الكازرونى وهو سكران ، فأمر السلطان بصلبه . وعلقت الجرة والقدح فى عنقه^(٢) أسف أصحاب الخلاعة والمجون على صاحبهم المصلوب ابن الكازرونى ، وعرض بعضهم بهذا الأمر فأنشد قائلاً :

لَقَدْ كَانَ حَدًّا السَّكْرِ مِنْ قَبْلِ صَلْبِهِ خَفِيفَ الْأَدَى ، إِذْ كَانَ فِي شَرِّ عِنَا جَلْدًا
فَلَمَّا بَدَأَ الْمَصْلُوبُ قَلْتُ لَصَاحِبِي : أَلَا تَبُفَّانِ الْهَدَّ قَدْ جَاوَزَ الْهَدَّ^(٣)

صوّر الشيخ شمس الدين محمد بن دانيال صاحب كتاب « طيف الخيال » حال مصر بعد عودته من الموصل فذكر أنه وجد مواطن الأنس دارسة ، وسمع بقصة المصلوب ابن الكازرونى ، وذكر أيضاً اعتذار صديقه إليه لتقصيره فى الإكرام ، إذ لم يأت به بالدمام ، وقال له : « قد غلب ظنى أن أبا مرة قد مات ، وعدت من الرفات ، فقم بنا نبكيه ، ونصف الحالة ونرثيه » .

لبي ابن دانيال طلب مضيفه فأنشده قصيدة يرثى بها شيخه إبليس :

مَاتَ يَا قَوْمُ شَيْخُنَا إِبْلِيسُ وَخَلَا مِنْهُ رِبْعُهُ الْمَانُوسُ
وَنَعَانِي حَدْسِي بِهِ إِذْ تُوَفِّي وَلَعَمْرِي مِمَّاتُهُ مَحْدُوسُ

(٢) بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٤ .

(٤) أبو مرة : كنية إبليس .

(١) السلوك ج ١ ص ٥٥٤ .

(٣) المصدر السابق .

هُوَ لَمْ يَنْعِهِ - كما قلتُ - مَيْتًا
 أَيْنَ عَيْنَاهُ؟ تَنْظُرُ الخَمْرَ إِذْ عَطَّ
 وَمَوَاعِينُهَا^(٤) تَكْسِرُنَ والخَمَّةَ
 أَيْنَ عَيْنَاهُ؟ والحَشَائِشُ إِذْ تُحَدِّ
 قَلَعُوهَا مِنَ البَسَاتِينِ إِذْ ذَا
 والحِرَافِيشُ^(٦) حَوْلَهَا قَدْ تَبَاكَوْا
 أَيْنَ عَيْنَاهُ؟ تَنْظُرُ المِزْرَ^(٩) قَدْ أَوْ
 وَعَجِينُ^(١٢) البَقُولِ قَدْ بَدَّدُوهُ
 والقَنَافِي مَكْسِرَاتٌ كَمَا قَدْ
 وَذَوو القَصْفِ ذَاهِلُونَ وَقَدْ كَا
 وَفَتَى قَائِلٌ لَقَدْ هَسَانَ عِنْدِي
 لَمْ يُغَيِّرْ لِأَمْرِهِ نَامُوسٌ^(١)
 لَ مِنْهَا الرَاوِقُ^(٢) والمحْرِيسُ^(٣)
 أَرُ مِنْ بَعْدِ كَسْرِهَا مَجْبُوسٌ
 رَقٌ^(٥) بِنَارٍ تُرَاعُ مِنْهَا المَجْبُوسُ
 لَكَ صَغَارًا خَضِرَاءَ وَهِيَ عَرُوسٌ
 بَدْمُوعٍ يُطْفَأُ^(٧) بِنِ الوَطِيسِ^(٨)
 حَشٌّ مِنْهُ المَاجُورُ^(١٠) والقَادُوسُ^(١١)
 وَهُوَ بِالتَّرْبِ خَلَطُهُ مَبْسُوسٌ
 كُسِّرَتْ فِي دُجَا اللَّيَالِي الكُؤُوسُ
 دَتْ عَلَى سَبِيلِهَا تَسِيلُ النَفُوسُ
 بَعْدَ هَذَا فِي شَرِبِهَا التَّجْرِيسُ

(١) الناموس : كلمة من الدخيل ، ومعناها هنا الشريعة والمذهب ، وتطلق في أصل الوضع على صاحب السر المطلع على باطن الأمر .

(٢) الراويق : ناجود الشراب الذي يروق به فيصق ، والشراب يروق منه من غير عصر .
 والسرى الرقاه خمسة أبيات في وصف الراويق ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٣) هذا اللفظ معروف ومستخدم في العامية المصرية بمعنى وعاء الخمر أو ما أشبه ذلك .

(٤) المواعين : جمع الماعون ، وهو اسم جامع لأسقاط البيت كالدلو والقباس والقدر والقصعة ، والمعنى الأخير هو المراد .

(٥) سكن آخر الفعل (تحرق) لضرورة شعرية ، وحققها الرفع ، ليستقيم الوزن .

(٦) حرافيش : جمع حرفوش ، وتجمع أيضاً على حرافشة ، وهم الرعاع والدهماء وضعاف تخلق ، وقد أوردها دوزى في معجمه ملحق المعاجم العربية (S.D.A.) .

(٧) يطفأ : أى يطفأ ، وقد خفف الهمز لضرورة شعرية طارئة .

(٨) الوطيس : هو الشنور أو نحوه .

(٩) المزر : بكسر الميم ، من أسماء الخمر ، وتطلق على نبيذ الذرة أو الشعير .

(١٠) الماجور : هذا اللفظ مستخدم حتى الآن في العامية المصرية بمعنى الوعاء .

(١١) القادوس : إناء يخرج به الماء من السواقي ، والقدس : السطل .

(١٢) القناني : جمع قنينة ، وهى في الأصل إناء من الزجاج للشراب .

كم خليع يقول: ذا اليوم يوم
وقضيب ونرجس وسعاد
ذى تنادى حريفها^(٢) لوداع
ويتنادى قوادهم: شه^(٤) علينا
من لنا شصفت لجور زمان؟
وترى زنكلون يزعم: زيتو
أين شكشكتي^(٧) وطاجنة الفا
نهبوا الحصن والطراير^(١٠) والطا
ارحلوا هذه بلاد عفاف
من لنا بعد ذلك الشيخ ألف
لا ترى بعده فتى ضاحك الس
فسأبكيه أرمد العين حتى

مثلما قيل قمطير عبوس^(١)
باكيات وزينب وعروس
لا عناق لا ضم لا تبويس^(٣)
نجم ستي قد نكسته العكوس
لا قحاب^(٥) فيه ولا خندريس^(٦)
ن وناقو بصيح: يا جاسوس
ر؟ وأين المزراق^(٨) والذبوس^(٩)؟
ر^(١١) وضاعت خريطي^(١٢) والفلوس
وسعود الخلاع فيها نحوس
وسمير ومونس وأنيس؟
ن وكل يبسو له تعبيس
لشفائي يعيش جالينوس^(١٣)

- (١) العبوس القمطير: أي الشديد .
(٢) حريفها: حريف الإنسان معاملة في حرفته .
(٣) التبويس: من أصل فارسي، مصدر بوس أي قبل .
(٤) شه: في اللسان أن كلمة (شه) حكاية كلام شبه الانتهاز، وهو معرب (شه)
من أصل فارسي، بمعنى اسم صوت، أو كلمة تدل على النفرة والكرهه .
(٥) قحاب: جمع قحبة، وهي كلمة مولدة، تطلق على المرأة البغي، لأنها كانت
في الجاهلية تؤذن طلابها بقحابها وهو سمالها .
(٦) خندريس أي خمر قديمة . قال ابن دريد أحسبه معرباً، وسميت بذلك لقدمها .
قال الفيروزبادي: إنه مشتق من الخندسة ولم تقصر، وهي رومية .
(٧) شكشكتي: الشكشكة هي السلاح الحاد، أو حدة السلاح .
(٨) المزراق: الريح القصير .
(٩) الذبوس: وهو المقتمة، أي عصا من خشب أوحديد في رأسها شيء كالكرة، وهو معرب .
(١٠) الطراير: جمع الطرطور، أي قلنسوة للأعراب طويلة الرأس دقيقة .
(١١) الطار والطاراة عند العامة آلة موسيقية من آلات الطرب كالدف يضرب بها .
(١٢) خريطة: وعاء من آدم وغيره يشد على مافيه .
(١٣) بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

أوردت هذه القصيدة كاملة ، لم أنقص منها ، فقد أتى ابن دانيال على المحنة التي أصابت أرباب المحجون والحلاعة ، وقد أسف الشاعر بعد عودته من الموصل على ديار الأنس الدارسة ، وأسف أيضاً على موت شيخه إبليس ، وتمنى لو اكتحلت عيناه بمنظر الحمرة وهي تهرق ، والحشيش وهو يحرق بنار يخافها حتى عبادها . كما أنه وقف يصف لنا أسف الناس ، فذكر أرباب البغاء والمحجون ، وما حل بهم من جور الزمان ، وأسف لأنه افتقد سميره الموائس بعد مصرع إبليس ، ووعد صادقاً أن يبكي عهده بعين رمداء ، ففعل جالينوس يبعث حياً ليشفيه .

الإباحية والمحجون

إن مما ساعد على تفشي هذه الفاسد جواز تتبع الرخص ، يضاف إلى ذلك ترخيص بعض العلماء للأمرء وذوى السلطان بإباحة بعض المحرمات ، وقد أشار تاج الدين السبكي إلى ذلك ، فذكر أن بعض المفتين من الفقهاء « منهم من يسهل أمر الشرع ، ويتناهى إلى أن يفتى ببعض ما لا يعتقده من المذاهب ، ويرخص لبعض الأمرء ما لم يرخص منه لعموم الخلق بعض العلماء ، فيقول مثلاً لمن سأله عن انتقاض الوضوء بمس الذكر : لا ينتقض عند أبي حنيفة ؛ وعن لعب الشطرنج وأكل لحوم الخيل : حلال عند الشافعي ؟ وعن مجاوزة الحد في التعزيزات : جائز عند مالك ؛ وعن بيع الوقف إذا خرب وتعطلت منفعته . لم يكن له ما يعمر به : حلال عند أحمد بن حنبل ، وهكذا ..

أنشدت لبعض سفهاء الشعراء :

الشافعي من الأئمة قائلٌ : اللعبُ بالشطرنج غيرُ حرامٍ .
 وأبو حنيفة قال ، وهو مصدقٌ : في كل ما يروى من الأحكامِ :
 شربُ الثلثِ والمربعِ جائزٌ فاشربْ على أمني من الآثامِ .
 وأباح مالكُ الفِقاحَ تكررماً في ظهرِ جاريةٍ وظهرِ غلامِ .
 والحبرُ أحمدُ حلٌّ جلدُ عميرةٍ وبذلك يستغني عن الأرحامِ .
 فاشربْ ولطِّ وازنِ وقامرْ واحتججْ في كل مسألةٍ بقولِ إمامِ .

... لقد اجترأ على أئمة المسلمين . . . ومن هذه حاله يؤول والعياذ بالله
تعالى إلى الزندقة^(١)

استدرك السبكي على ما ذكره بقوله: « ولعل الأصل في هذا قول أبي نواس:
أَبَا حَ الْعِرَاقُ النَّبِيدَ وَشَرِبَهُ وَقَالَ : حَرَامَانِ الْمَدَامَةُ وَالسَّكْرُ
وَقَالَ الْحِجَازِيُّ : الشَّرَابَانِ وَاحِدٌ فَحَلَّ لَنَا مِنْ بَيْنِ قَوْلَيْهِمَا الْخَمْرُ
سَأَخَذُ مِنْ قَوْلَيْهِمَا طَرَفِيهِمَا وَأَشْرِبُهَا لَا فَارِقَ الْوَاوَزَ الْوِزْرُ
فهذا أبو نواس لم يقصد إلا نوعاً من الخجون الذي لم يخل عنه الأدباء »^(٢)
وهذا الذي أوردناه يعطينا فكرة عن الفكاكة والخجون في عصر ابن نباتة .
ويفسر لنا هذه الظاهرة الأصلية في شعره وذاته والمعروفة لدى أدباء العصر
بعامة ، ولديه بخاصة .

• • •

نخلص من دراسة الحياة الاجتماعية إلى القول إن هذه الحياة تمثل جانباً
آخر هاماً من جوانب الوحدة العربية ، حتى إن الطبيعة كانت في المصائب
والنوائب تجمع بين مصر والشام وغيرهما ، وقد رأينا ذلك واضحاً كل الوضوح
فيما عرضناه ، غير أننا نجد أن هذه الوحدة الاجتماعية قد ثبتت دعائمها وحدة
فكرية شاملة ، قل أن نجد لها مثيلاً في التاريخ العربي والإسلامي . وهذا ما نفضله
في بحثنا القادم خلال عرضنا للحياة الفكرية في هذا العصر .

(١) معيد النعم ومبيد النقم ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

القسم الثالث الحياة الفكرية

نكبت الحضارة الإسلامية عندما طغى سيل التار على آفاق الشرق الإسلامي والبلاد العربية ، فاحتلوا بغداد ، واستباحوها خلال بضعة وثلاثين يوماً سنة ٦٥٦ هـ ، وكثر عدد الضحايا ، فإحصاهم عد .

لم يكتفوا بكل ذلك ، بل جمعوا العلماء والفقهاء والأعيان زاعمين أنهم يريدون عقد قران ابنة الخليفة ، فقتلوه عن آخرهم . نشير منهم إلى الأستاذار محيي الدين بن الجوزي الذي صرع مع أولاده الثلاثة^(١) والشيخ يحيى بن يوسف الصرصري الشاعر الضرير .

لم يكتف التار بما ارتكبته أيديهم الآثمة . بل تطاولوا على قصور الخلفاء فأحرقوا ما فيها من الكتب النفيسة في شتى العلوم والفنون . وروى أنهم بنوا بها بأمر هولاءكو جسراً من الطين والماء عوضاً عن الآجر^(٢) .

أثارت هذه النكبة النكباء قرائح الأدباء والشعراء . فنظموا القصائد النائحة في رثاء هذه الحضارة الآفلة ، نشير منهم إلى الشيخ تقي الدين إسماعيل التنوخي ، فقد أنشد قصيدة يرثى بها بغداد ، وجملة القصيدة ستة وستون بيتاً ، منها قوله :

لسائل الدمع عن بغداد أخباراً فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تفسدوا فما بذاك الحمى والدار دياراً
تاج الخلافة والربع الذي شرفت به المعالم قد عفاه إقفاراً
أضحى لعطف البلى في ربه أثر وللدموع على الآثار آثاراً

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥١ ، وتاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ١٩٧ .

(٢) المصدر السابق .

يا نارَ قلبِي من نارٍ لحربٍ وغي
علا الصليبُ على أعلى منابرها
شبت عليه ووافق الربيعَ إعصارُ
وقام بالأمر من يحويه زنارُ
ومنها :

وكم بدورٍ على البدرية^(١) انخسفت
وكم ذخائرَ أضحتْ وهي شائعةٌ
وكم حدودٍ أقيمتْ من سيوفهم
ناديتُ والسبي مهتوكٌ يجرهم
ولم يعدْ لبدرٍ منه إبدارُ
من النهابِ وقد حازتهُ كفارُ
على الرقابِ وحطتْ فيه أوزارُ
إلى السفاح^(٢) من الأعداءِ دعارُ^(٣)
ومنها :

وهم يُساقونَ للموتِ الذي شهدوا
يا للرجالِ لأحداثٍ تحدثنا
من بعدِ أسرِ بني العباسِ كلهم
ما راق لي قطُّ شيءٍ بعدَ بينهم
لم يبقَ للدينِ والدنيا وقد ذهبوا
إن القيامةَ في بغدادٍ قد وجدتُ
آلُ النبي وأهلُ العلمِ قد سبوا^(٤)
ما كنتُ أملُ أن أبقى وقد ذهبوا
النارُ يا ربَّ نصلها ولا العارُ
بما غدا فيه إعدارُ وإنذارُ
فلا أنارَ لوجهِ الصبحِ إسفارُ
إلا أحاديثُ أروها وآثارُ
سوقٍ لمجدٍ وقد بانوا وقد باروا
وحدها حينَ للإقبالِ إدبارُ
فمن ترى بعدهم تحويه أمصارُ؟
لكن أنى دونَ ما أختارُ أقدارُ^(٥)

هكذا كان مصير بغداد ، إذ لم يبق من بني العباس وآل النبي وأهل العلم ديار ، فلقد أصبحت قاعاً صفصفاً ، ولم ينج من الموت إلا نفر قليل ،

(١) البدرية : نسبة إلى بدر مولى المعتضد ، والمراد بها قصر المنصور .

(٢) السفاح : الزنا ، وتزوج المرأة سفاحاً أي بغير سنة ولا كتاب .

(٣) دعار : الفاجر والفاقد والحبيث .

(٤) هكذا وردت خطأ ، والصواب (سبوا) ولا يستقيم به الوزن . ولعلها مصحفة من

(قتلوا) .

(٥) المصدر السابق ج ٧ ص ٥١ ، ٥٢ .

لم يكن يأمل أن يبقى بعد هذه الكارثة التي أتت على هذه المدينة ومن فيها .
 أما هذا النفر المهاجر فولى وجهه شطر مصر والشام ، وتشوفوا من بعد
 إلى مدينة القاهرة التي ستحزو عليهم حنو المرضعات على الفطيم . وستنتقم لهم
 في يوم قريب .

القسم الأول

بعث النهضة العربية

كانت القاهرة تنشر نورها الفكرى منذ زمن طويل ، وأصبحت أهم
 مركز علمى لنشر الثقافة العربية والإسلامية شرقاً وغرباً . وما كادت شعلة النور
 تنطفىء في بغداد حتى حلت محلها القاهرة ، وواصلت السير بركب قافلة
 الحضارة العربية ، وحملت على عاتقها هذه الأمانة المقدسة ، وأوصلتها إلى
 شاطئ السلامة ، فأزهت رياضها ، وآتت قطفها اليانعة .

أما هؤلاء العلماء المهاجرون من وجه التتار ، فنشير منهم إلى الصدر البكرى^(١)
 الذى برع في فن الحديث ، وانتهت إليه رئاسة الحديث بالديار المصرية . كما
 نشير أيضاً إلى ابن خلكان المؤرخ المشهور ، وإلى كمال الدين بن العديم الذى
 هجر مدينته حلب الشهباء في عهد الناصر بن قلاوون فاراً من وجه التتار ، وإلى
 والد ابن تيمية الحرانى الذى فر أيضاً إلى مصر ومعه ابنه ابن تيمية المشهور ،
 وكان آنئذ حدثاً حينما احتل التتار حلب .

جرى كل ذلك في المشرق منذ بدأت فتوحات هؤلاء الغزاة واستمرت طويلاً
 وفي كل مرة يهاجر فوج جديد ، سواء أكانوا في نيسابور أم في بغداد أم حران
 أم أربل أم حلب أم في غيرها من البلاد العربية أو الإسلامية . جرى كل ذلك
 في مشرق العالم العربى والإسلامى ، أما في المغرب وبخاصة في الأندلس العربية
 ذلك الفردوس المفقود فقد ضعف أمر العرب هناك ، وأصابهم الخذلان ، وفضل
 كثير منهم أن يرحل إلى أرض الشام أو وادى النيل ، نذكر من هؤلاء العلماء

(١) أبو عل الحسن بن محمد النيسابورى ، ولد سنة ٥٧٤ هـ وتوفى سنة ٦٩٦ هـ .

ابن دحية^(١) وابن مالك^(٢) وابن حبان^(٣) ، ونذكر من علماء المغرب ابن منظور الإفريقي وابن خلدون وابن أبي حجلة وغيرهم كثير .

نخلص من ذلك إلى القول إن كثيراً من علماء المشرق والمغرب ، وجدوا في مصر والشام المعقل الحصين الذي يلوذون به من شر الأعداء ، فتوجهوا إليهما وأقاموا فيهما يستفيدون ويفيدون ، فنه شأن بعضهم ، وأصبحوا كعبة القصاد . أشار ابن خلدون في مقدمته إلى المراكز العلمية التي خلقت دار السلام فقال: « وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه ، بل أسواقه نافقة ، وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور ، واتصال السند فيه ، وإن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة ، إلا أن الله تعالى قد أдал منها بأمصار أعظم من تلك ، وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان ، وما وراء النهر من المشرق ، ثم إلى القاهرة وما يليها من المغرب »^(٤) .

لكن التاريخ أثبت أن المركز الوحيد الذي ازدهر وبقي مع الزمن ينشر نور المعرفة والثقافة هو مركز القاهرة ولا سيما بعد أن بعثت الخلافة الإسلامية من مرقدتها على يد السلطان الظاهر بيبرس سنة ٥٦٩هـ ، كما رأينا ذلك من قبل ، وقد أشاد ابن خلدون أيضاً في مكان آخر بمصر وحضارتها ، فذكر أنها أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم^(٥) .

نضيف إلى هذه العوامل الخارجية عوامل أخرى داخلية أمهت في بعث هذه النهضة العلمية الكبرى التي فاقت كل حضارة سابقة ، نشير منها بصورة خاصة إلى غيرة سلاطين المماليك وأمرائهم على الدين الإسلامي وتوقيعهم الزائد

(١) أبو الخطاب عمر بن الحسن بن دحية السبكي مؤيد السلطان الكامل ، ولد سنة ٥٤٤هـ ، وتوفي سنة ٦٢٣هـ . البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٤٤ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٩ .

(٢) جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الجيافي ولد بجميان سنة ٦٠٠هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٧٢هـ . البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦٧ .

(٣) أثير الدين محمد بن يوسف بن حبان الفرناطي ، ولد سنة ٦٥٤هـ وتوفي سنة ٧٤٥هـ . حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٩ .

(٤) مقامة ابن خلدون ص ٤٣٢ .

(٥) مقامة ابن خلدون ص ٥٤٥ .

لرجالهم وقضائهم . وقد دفعهم ذلك لإنشاء كثير من بيوت الله والربط والزوايا والخوانق لإقامة الشعائر الدينية تخليداً لذكراهم .

كثرت العناية بالعلوم الدينية ، وانصرف العلماء للعناية باللغة العربية والتخصص في علومها والعناية بآدابها ، وقد أدى بهم ذلك للإكثار من إنشاء دور العلم بالإضافة إلى المساجد . وألحقت بها دور الكتب الثمينة ، واختير لها من العلماء الأفاضل الذين يصلحون للتدريس في الدور المذكورة .

القسم الثاني

دور العلم

كانت الدراسات الدينية وغيرها في العصر الفاطمي مقصورة على المساجد التي كانت دور عبادة وعلم في آن واحد . وقد أنشأ الحاكم بأمر الله الفاطمي دار العلم ، وأجاز فيها المجادلات في المذاهب الإسلامية المختلفة ، وجرت فيها المناظرات بين رجال هذه المذاهب ، كما أعطيت فيها الحرية لرجالها لنشر تعاليمهم دون أن يمسهم أي سوء^(١) .

كان صلاح الدين الأيوبي سنياً شافعيًا ، وأراد تطهير البلاد من كل العقائد الشيعية الإسماعيلية ، فأنشأ مدرسته الصلاحية أو الناصرية بجوار ضريح الإمام الشافعي ، وقد دعاها السيوطي بتاج المدارس^(٢) درس في هذه المدرسة كبار علماء العصر أمثال : تقي الدين بن رزين ، وتقي الدين بن بنت الأعز ، وتقي الدين بن دقيق العيد أستاذ ابن نباتة وموجه نحو نظم الشعر .

كما عرف عن الملك الكامل أنه أسس داراً لتدريس الحديث النبوي ، وسماها دار الحديث^(٣) ، وهي ثاني مدرسة أنشئت في العالم الإسلامي بعد المدرسة

(١) أدب مصر الفاطمية ص ١٠٠ .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٢ .

الأولى التي أنشأها في دمشق الملك العادل نور الدين الزنكي لدراسة الحديث أيضاً^(١) .

استمر الأيوبيون في بناء دور العلم برغم قصر مدة حكمهم ، وقد ذكر أن الملك الصالح نجم الدين أيوب أنشأ مدرسة سماها المدرسة الصالحية ، وعندما احتفل بافتتاحها أنشد أبو الحسين الجزار :

ألا هكذا يبني المدارس من بني وَمَنْ يَتَعَالَى فِي الثَّوَابِ فِي الْبِنَاءِ^(٢)
جرت العادات عند افتتاح مدرسة ما أن يقام احتفال ، يحضره السلطان والأمراء والفقهاء والقضاة ، ويمد سماط للمدعوين ، وبعد انتهاء الدعوة يخلع السلطان على كل من عمل في بناء المدرسة ، ويعين لها المدرسين والمعيدين ، ويحسب عليها الأوقاف لكي يدفع منها نفقات التدريس ، ويلحق بها دور الكتب التي تساعد الطلاب على الدراسة والبحث العلمي .

جاء عصر سلاطين المماليك ، وتنافسوا في إنشاء المدارس . وقد كثر عددها ، حتى لقد عجب ابن بطوطة من كثرة عددها ، فذكر أنه لا يحيط أحد بحضرها لكثرتها^(٣) ، وقال القلقشندي : « إن هؤلاء السلاطين بنوا من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها »^(٤) .

نذكر من مدارس المماليك المدرسة الظاهرية القديمة التي^(٥) أنشأها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢ هـ . والمدرسة المنصورية التي أنشأها المنصور قلاوون وألحق بها البيمارستان المنصوري ، وأمر أن يدرس فيها الفقه على المذاهب الأربعة . يضاف إلى ذلك درس في التفسير ، ودرس في الحديث ، ودرس في الطب . ويذكر السيوطي^(٦) أن الشرف البوصيري أنشد السلطان حينما تم البناء قصيدة مطلعها :

أَنْشَأَتْ مَدْرَسَةً وَمَارِسْتَانَا لِنَصْحِ الْأَدْيَانِ وَالْأَبْدَانَا

(١) الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٩٩ .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٢ . (٣) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧٠ .

(٤) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ . (٥) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٢ .

(٦) المصدر السابق .

وتذكر أخيراً المدرسة الناصرية^(١) التي فرغ من بنائها سنة ٧٠٣ هـ ،
ويذكر المقرئى أنه أدرك هذه المدرسة ، وهي محترمة إلى الغاية بحرسها علة من
الطواشية ، ولا يسمح لأى إنسان بدخولها دون استئذان . يحسن أن نشير إلى
النظام المتبع فى هذه الدور العلمية الجامعة ، وهي لا تقل شأنًا عن الجامعات
المعروفة فى عصرنا من حيث نظم الدراسة ، وهيئة التدريس ، فإن لكل مدرسة
عددًا من المدرسين والمعيدين ، بالإضافة إلى طلابها المتسقين ، وكان رأس
المدرسة الشيخ الذى رسم السلطان بتعيينه ، وكان عادة من أقدم المدرسين .
يذكر ابن دقماق خلال حديثه عن المدرسة الطيرسية التي أنشأها الأمير
علاء الدين طبرس ما نصه : « ثم وقفها مدرسة للفقهاء الشافعية والمالكية ،
يجلسون - أى الشافعية - فى الإيوان الغربى . والمالكية فى الإيوان الشرقى ، ورتب
من كل مذهب مدرساً ومعيداً وخمسة عشر طالباً ، وقرن الإمامة لمعيد الشافعية ،
والمترلين علوها للمدرسين ، وعمر مكتباً للسبيل ، وشرط لكل مدرس ستين درهماً
ولعيد الشافعية الإمام فى كل شهر أربعين درهماً ، ولعيد المالكية فى الشهر
أربعين درهماً »^(٢) .

كما ذكر السيوطى فى معرض حديثه عن المدرسة الصلاحية « أنها خلت
من مدرس ثلاثين سنة واكتفى فيها بالمعديدين »^(٣) .

ما الفرق إذاً بين المدرسين والمعديدين ؟ ولكى ندرك هذا الفرق - كما كانوا
يرونه قديماً - نذكر قول تاج الدين السبكى : « أما المدرس فحق عليه أن
يحسن إلقاء الدروس وتفهمه الحاضرين ، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلحق عليهم
ما لا يناسبهم من المشكلات ، بل يدرّبهم ، ويأخذ بالأهون فالأهون إلى أن ينتهوا
إلى درجة التحقيق »^(٤) .

أما المعيد فيذكر السبكى أيضاً قوله : « المعيد عليه قدر زائد على سماع
الدروس من تفهم بعض الطلبة ، ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة ، وإلا
فهو والفقير سواء »^(٥) .

(١) المصدر السابق .

(٢) الانتصار ج ٤ ص ٩٦ .

(٣) حسن المحاضرة ص ١٤٠ ج ٢ . (٤) ميعاد الترم وبيد النقم ص ١٠٥ .

(٥) المصدر السابق ص ١٠٨ .

بقى علينا أن نتحدث عن الطلاب ، وكان عددهم محدوداً في كثير من الأحيان ، كما مر معنا في المدرسة الطيرسية ، ويدعون بالفقهاء ، فيقال مثلاً فقهاء المدرسة الصلاحية ، أو فقهاء المدرسة الفاضلية ...

ينقسم الفقهاء عادة بحسب قدمهم في الدراسة ، فمنهم الفقيه المفيد ، وعليه أن يعتمد ما يحصل فيه بالدرس فائدة من بحث زائد على بحث الجماعة^(١) ، ولعله يعادل طالب الماجستير في نظامنا الحديث ، ومنهم الفقيه المنتهى^(٢) ، وعليه من البحث والمناظرة فوق ما على دونه ، ولعله يعادل طالب الدكتوراه .
أما سائر الطلاب فهم الجماعة العامة وهم يختلفون بحسب تقادم عهدهم في الدراسة والاختصاص .

يحسن بنا أن نشير إلى مشايخ هذه المدارس ومدرسيها ، نذكر منهم عز الدين ابن عبد السلام ، ومحيي الدين النووي ، وتقي الدين بن دقيق العيد ، وتقي الدين بن تيمية ، وشمس الدين بن قيم الجوزية ، وتقي الدين السبكي وغيرهم من أفاض العلماء .

أما الدروس فكانت مختلفة تتناول العلوم الدينية والعربية والفلسفية والطبية وغيرها ، وكان المدرسون يتشددون في التدريس في بعض الأحيان ، وقد ذكر الأذفوي ذلك في معرض قصيدة طريفة نذكرها كما أوردها ابن حجر في درره :

طُيْتُ عَلَى لَغَطٍ وَقَرَطٍ عِيَاظٍ	إِنَّ الدَّرُوسَ بِمَصْرِنَا فِي عَصْرِنَا
جَدَلًا وَنَقَلَ ظَاهِرَ الْأَغْلَاطِ	وَمَبَاحِثَ لَا تَنْتَهَى لِنَهَايَةٍ
نَشَأَتْ عَنِ التَّخْلِيظِ وَالْأَخْلَاطِ	وَمُدْرَسٍ يُبْدَى مَبَاحِثَ كُلِّهَا
أَجْزَاءَ يَرُويهَا عَنِ الدِّمِيَاظِ	وَمَحْدَثٍ قَدْ صَارَ غَايَةً عِلْمَهُ
وَفَلَانٌ يَرُوي ذَاكَ عَنِ أَسْبَاطِ	وَفَلَانَةٌ تَرُوي حَدِيثًا عَالِيًا
وَأَفْصَحُ عَنِ الْخِيَاظِ وَالْمَحْنَاطِ	وَالْفَرْقَ بَيْنَ عَزِيرِهِمْ وَعَزِيرِهِمْ ^(٣)

(١) المصدر السابق ص ١٠٨ . (٢) المصدر السابق ص ١٠٨ .

(٣) هناك محدثان عرفا باسم (عزير) هما : عزير بن أحمد الأصفهاني ، وحفيد

عزير بن الربيع بن عزير .

وأبو فلان ما اسمه ؟ ومن الذى بين الأنام ملقب بسناط ؟
والفاضل النحرير فيهم دأبه قول أرسطاليس أو بقراط.
وعلم دين الله نادى جهره هذا زمان فيه طى بساطى^(١)

تلك هى الثقافة العامة فى هذا العصر ، ينال منها الطالب ما يبتغيه ، ويختص عندما يصبح فقيماً منتهياً ببعض العلوم ، لينال الإجازة العلمية ، ويشهد العالم لطالبه أنه أتم دراسته ، وأصبح أهلاً للتدريس والفتيا ، ويمنحه الإجازة العلمية ، فيذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة وغير ذلك .

نشير إلى أنواع أخرى من الإجازات العلمية عرفها أبناء العصر ، منها الإجازة بعراضة الكتب ، فيحفظ الطالب كتاباً فى الفقه أو الحديث أو الأدب أو النحو ثم يعرضه على مدرسه ، فيختبره ، فى عدة أماكن من الكتاب ، فإذا أحسن الإجابة ، ولم يخطئ فيه ، كتب له الإجازة فى ذلك ، وقال فيها : « عرض على فلان .. » ، أو « عرض على » وكتبه فلان » وتتوقف قيمة هذه الإجازة على شهرة الأستاذ المميز^(٢) .

وأدينا ابن نباتة كان أحد العلماء المشهورين الذين يقصدون من كل الأنحاء لنيل الإجازات العلمية ، وكان يميز طلابه من شيوخ العصر ، كإجازته للصفدى ثراً ، أو لإجازته لابن سمنديار شعراً وغيرهما من مشاهير العصر . وسوف نعرض لهذا الأمر عند دراسة مكانته العلمية ومنزلته الأدبية .

القسم الثالث الثقافة العامة فى هذا العصر

ازدهرت الحركة الثقافية فى هذا العصر ازدهاراً كبيراً ، وقد يضيق بنا البحث أو حاولنا أن نعطي حتى صعرة بسيطة عن هذا العصر الزاهر الذى لم

(١) الدرر الكامنة ج ١ ص ٥٣٦ ، ومعيد النعم ص ٩٠ .

(٢) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

تعرف له الحضارة الإسلامية مثيلاً في تاريخها، وأغرب ما في الأمر أن يعتقد الكثيرون أن هذا العصر يمثل انحطاط الثقافة الإسلامية ، ويرمز إلى جمودها وعمقها ، كنت - مع كل الأسف - من أولئك النفر ، لكنني بما إن درست عصر الأديب الكبير ابن نباتة حتى وجدته أكاد أغرق في بحر لجي من أدب جم مطوي لم ينشر ، ومن ثقافة عميقة لم تطلها يد إنسان بعد ، ولم تنفض عنها سحائب غبار السنين ، ويكفي أن أشير إلى أهم مؤلفات أديبنا الكبير التي مازالت مخطوطة لم تنشر بعد ، وقابعة في مكتبات الغرب ، تنتظر اليد الرحيمة الآسية التي تنقذها من سقاء الغربة والبعث .

كان العلماء قديماً يؤلفون في شتى الموضوعات لأن حيزها ضيق ، أما في هذا العصر فقد ظهر التخصص في التأليف ، وقد دفع ذلك السيوطي لتقسيم العلماء ضمن زمرة خاصة بحسب العلوم التي يغلب عليهم فيها التأليف ؛ ذكر من بمصر من الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية ، وذكر أيضاً من كان فيها من حفاظ الحديث ، وأئمة القراءات . وأئمة اللغة والنحو والصرف ، وأرباب المعقولات ، وأشهر المؤرخين والتأبين من الشعراء والأدباء .

١

علوم الدين

اهتم العلماء بعلوم الدين من فقه وحديث وتفسير وقرآيات ، فألفوا فيها من الكتب الكثيرة بحيث لم يبقوا فيها زيادة لمستزيد . وقد ساعد سلاطين المماليك علماء الدين على الانصراف للتأليف ، واستطاعوا أن يبلغوا بعلوم الشريعة مبلغاً ما عرفه المسلمون من قبل .

الفقه والفتاوى

كثرت التأليف في المذاهب الأربعة السنية ، فتناول العلماء المتون القديمة بالتوضيح والشرح ، وتعدى الأمر ذلك فشرعوا يشرحون الشروح نفسها ،

واختصروا هذه الشروح ليسهل تناولها في الدراسة ، كما كانوا ينبهون على ما فات الشراح من مسائل وتعليقات

نشير من هؤلاء العلماء إلى الأئمة المجتهدين أمثال : الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء^(١) ، ومؤلف كتاب « الفتاوى الموصيلة » . والشيخ شهاب الدين القرافي^(٢) مؤلف كتاب « الذخيرة » ، والشيخ تقي الدين بن تيمية^(٣) مؤلف كتاب الفتاوى المصرية ، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد مؤلف كتاب « شرح العنوان » وغيرهم من الذين لا يحصيم عد ..

يتصف أسلوب هؤلاء العلماء في تصانيفهم الدينية بالروح المنطقية التي تسود أبحاثهم ، يضاف إلى ذلك كثرة الاحتجاج والاعتراض والتدليل والقياس ، بالإضافة إلى النقد التزيه المبني على أسس العقل والاعتدال والمنطق ، وهذا ما نلمسه جلياً أيضاً في الحديث النبوي .

الحديث والمحدثون

ذكر السيوطي زمرة خاصة من المحدثين أنفردوا بعلو الإسناد ، لكنهم لم يبلغوا درجة الحفظ أمثال غازي الخلاوي^(٤) الذي أخذ عنه ابن نباتة الحديث وست الأكياس المصرية^(٥) ، وفاطمة بنت عباس البغدادية^(٦) ، ومحيي الدين ابن فضل الله^(٧) ، أحد الذين اتصل بهم ابن نباتة . قد يكون من الحق أن ندعو هذا العصر بعصر الحديث ، وأن نشير إلى أهمية العناية بالحديث النبوي ، ويكفي أن نشير إلى أن عباقرته ظهوروا بمصر والشام ، وغيرهما ، نشير منهم إلى ابن الأنماطي

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٦ . (٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٢٧ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٣٥ .

(٤) أبو محمد أبي الفضل توفى سنة ٦٩٠ هـ . انتهى إليه علو الإسناد بمصر . حسن

المحاضرة ج ١ ص ١٢ .

(٥) موقية بنت وردان المصرية توفيت سنة ٧١٢ هـ . حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٤ .

(٦) فاطمة بنت عباس البغدادية توفيت سنة ٧١٤ هـ . حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٤ .

(٧) يحيى بن فضل الله كاتب السر في مصر توفى سنة ٧٢٨ هـ . حسن المحاضرة ج ١ .

وابن دحية والنوى والصدر البكرى والدمياطى وابن دقيق العيد والتقى السبكي
وشمس الدين المحدث والد ابن نباتة وغيرهم كثير .

لم يكتب المحدثون بما حفظوه من الحديث كما حفظوا كتاب الله ، بل
اشترطوا على رواته الحصول على الإجازة فى روايته ، واشترطوا كذلك فى الرواية
أن تكون من عالم حافظ ورواية مجاز من شيخه ، ولا تنال الإجازة فى رواية
الحديث إلا بعد ملازمة طويلة للشيخ المحدث ، وفى خلالها يحفظ الحديث ،
فيجيزه شيخه برواية حديث معين عنه أو جملة من الأحاديث . أذكر
على سبيل المثال الإجازة فى الحديث التى نالها ابن نباتة كما وردت فى الوافى
بالوفيات للصفدى ، وهذا نصها :

« أخبرنا الشيخ عز الدين أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم بن على الخرايى
— رحمه الله — إجازة ، أنا الشيخ أبو الفتوح يوسف بن المبارك ، قراءة عليه ،
وأنا حاضر ببغداد ، أنا الشيخ أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن عبد الواحد
القرزاق ، قراءة عليه وأنا أسمع ، أنا الشيخ أبو الغنائم عبد الصمد بن على بن
محمد ، قراءة عليه وأنا حاضر ، قيل له : أخبركم أبو الحسن على بن عمر بن
أحمد الدارقطنى ، نا محمد بن على بن إسماعيل الأيلى ، نا أحمد بن المعلى
ابن يزيد ، نا حماد بن المبارك ، نا محمد بن شعيب ، نا مروان بن جناح
عن هشام عن غزوة أنه أخبره عن عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبى
(صلى الله عليه وسلم) أن رسول الله قال : إن من الشعر لحكمة » (١) .

لم تقتصر العناية على حفظ الأحاديث وروايتها ، بل كان الحفاظ يعنون
بدراسة علم مصطلح الحديث ، ويهتمون بمعرفة تراجم رجاله وتعديلهم وتجريحهم .

القراءات والقراء

عنى المسلمون بالقراءات القرآنية وحسن أدائها وتأثر رسمها ، وحافظوا
على ما وضعه القدماء وما اصطلحوا عليه . وقد اعتمدوا فى ذلك على ما نظمه

(١) الوافى بالوفيات ص ٣١٧ ، ومعنى قوله (نا) أى (حدثنا) و (أنا) أى (أخبرنا) .

وهذا من أساليب الحديث النبوى الشريف .

الشاطبي^(١) في هذا العلم ، وقد أصبحت منظوماته متناً تناوله من بعده الشراح بالشرح والتوضيح .

نظم الشاطبي في القراءات ورسم المصحف ، وهو من أصل أندلسي ، وقد عمل في التدريس فيها ، وبذلك أصبح للأندلس الفضل في نشر هذا العلم في ربوع المشرق .

أما القصيدتان فهما : « حرز الأمانى » والرائية ، وقد سار بهما الركيان ، فذاع صيته ، وانتهت إليه الرئاسة في الإقراء بمصر . شرح الشاطبية كثيرون من الشراح ، نذكر منهم شهاب الدين أحمد بن يوسف الحلبي (المتوفى سنة ٥٧٥٦) وشهاب الدين أبا شامة (المتوفى سنة ٥٦٦٥) وشهاب الدين القسطلاني (المتوفى سنة ٥٩٢٣) ، والسيوطي (المتوفى سنة ٥٩١١) .

التفسير والمفسرون

أسهم علماء العصر بنصيب وافر بتفسير القرآن والتأليف حول موضوعاته ، وقد تضمنت تفاسيرهم كثيراً من شرح الأمور الدينية والمثل العليا الإسلامية . نشير إلى كبار التفسير في هذا العصر ، ونخص بالذكر منهم القرطبي محمد بن أحمد ، أشهر مفسري العصر (المتوفى سنة ٥٦٧١) ، وابن المنير الإسكندري (المتوفى سنة ٦٨٣ هـ) ، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول : « ديار مصر تفتخر برجلين في طرفيها ابن المنير بالإسكندرية . وابن دقيق العيد في قوص »^(٢) ، والعلم العراقي عبد الكريم (المتوفى سنة ٧٠٤ هـ) ، وابن تيمية الحراني (المتوفى سنة ٧٢٨ هـ) ، وتلميذه ابن قيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١ هـ) ، وتقي الدين السبكي (المتوفى سنة ٧٥٦ هـ) ، وإسماعيل بن كثير (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ)

(١) القاسم بن فبرة الشاطبي المقرئ الضرير ، ولد سنة ٥٣٨ هـ ، وتوفى سنة ٥٩٠ هـ .
حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٢ .

(٢) المنهل الصافي (مخطوط) ج ١ و ١٤٧ .

لم يقتصر التأليف على تفسير القرآن وحده ، بل تعداه إلى كثير من
المواضيع كأمثال القرآن وغيره وغير ذلك .

تلك هي لمحة أتينا فيها على شرح علوم الدين ، وهي - كما رأينا - تحتل
الصدارة في الدراسات الأساسية في ذلك العصر ، ولا نكون مغالين إذا قلنا :
إن دراسة علوم اللغة العربية تكمل الدراسات الدينية .

٢

علوم اللغة العربية

اهتم علماء العصر بدراسة اللغة العربية كوسيلة من وسائل إتقان القرآن
الكريم الذي أنزل بلسان عربي مبين ، وبيان لما فيه من بلاغة وإعجاز .
عقد السيوطي فصلاً خاصاً في حسن المحاضرة ، يتضمن أسماء أئمة النحو
واللغة ، ولم يشر مطلقاً إلى علوم البلاغة التي ازدهرت في هذا العصر أيما ازدهار .

النحو والصرف

كان للدراسات النحوية والصرفية نصيب كبير من الاهتمام ، وقد تأثرت
طريقة بحثها بما عرفناه لدى الفقهاء ، فوضعت المتن ، ثم شرحت ، واختصرت
بعد ذلك شروحها ، واستلرك عليها ما فات ، ويكنى أن نقول إن ما بين
أيدينا يجعل لهذا العصر قيمة كبرى في هذا المضمار .

لا شك أن ابن الحاجب (المتوفى سنة ٦٤٦ هـ) كان من أوائل
النحاة في بلاد الشام ، وقد شرح كتاب سيبويه ، ووضع (الشافية) في
الصرف و (الكافية) في النحو ، وقد عنى النحاة بكتايبه فشرحوها شروحاً
كثيرة .

كما ازدهر النحو في بلاد الأندلس ، وقد عكف علماؤه على دراسة نحو
البصرة والكوفة ، فاختروا من المذهبين مذهباً خاصاً بهم ، وقد انتقل هذا النشاط

التحوى إلى مصر والشام حينما هاجر علماؤها لاشتداد ضغط الإفرنج عليهم .
 جاء ابن مالك إلى بلاد الشام في عهد الظاهر بيبرس ، وكان مجيئه بدء
 حركة مباركة نحوية في أرض الشام ، وكان رائد ابن مالك ألا يتقيد بمدرسة
 معينة ، بل كان يأخذ من البصريين والكوفيين ما يراه صالحاً . ازدهرت هذه
 المدرسة النحوية ، فألف ابن مالك^(١) الأرجوزتين الكبرى والصغرى^(٢) ،
 وهما : « التسهيل » و « الكافية الشافية »^(٣) ، وهى أرجوزة كبيرة تتجاوز
 ألفي بيت وقد لخصها في ألفيته المشهورة التى أصبحت محور التأليف فى
 النحو والصرف فى هذا العصر .

ساعد الظاهر بيبرس ابن مالك النحوى على صلاح حاله ، بعد أن وصلته
 منه رسالة ، ولعله كان يود لو حضر إلى مصر ، إذ كانت فيها حركة نحوية
 بدأها ابن معطى صاحب الألفية والتصاريف النحوية الشهيرة^(٤) .

ساعد على ازدهار حركة الإحياء النحوية وفود عالم أندلسى كبير ، هو
 أثير الدين بن حيان^(٥) النحوى ، وقد درس النحو فى مطلع حياته على نحاة
 أندلسيين ، وآم دراسته وهو فى مصر ، فأخذ عن البهاء النحاس الحلبي وغيره
 من كبار نحاة عصره ، حتى فاق الشيوخ منهم .

هذه المدرسة التى ازدهرت فى مصر والشام على يد ابن مالك وابن معطى
 وابن حيان تمثل تفاعل المدارس النحوية المختلفة على يد نحاة أندلسيين وشاميين
 ومصريين . وقد انطبعت هذه المدرسة بطابع عربى موحد جديد ، يعد ثمرة هذا
 الازدهار النحوى فى هذا العصر .

-
- (١) جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الجبائى النحوى توفى فى دمشق سنة ٦٧٢ هـ .
 البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦٧ .
 (٢) مقلمة ابن خلدون ص ٥٤٧ .
 (٣) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦٧ .
 (٤) يحيى بن معطى بن عبد النور ، توفى سنة ٦٢٨ هـ . البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٢٩ .
 مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٧ .
 (٥) أثير الدين محمد بن يوسف بن حيان الأندلسى الغرناطى ولد سنة ٦٥٤ هـ وتوفى
 سنة ٧٤٥ هـ حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٩ .

يتمثل لنا ذلك في ظهور ابن هشام المصرى الذى قال عنه ابن خلدون :
« مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم ، يقال له ابن هشام أنحى
من سيويه »^(١) . كما أشاد بمؤلفاته وعبقريته في مقدمته أيضاً ، فذكر عن كتابه
« مغنى اللبيب عن كتب الأعراب » ما نصه : « وصل إلينا بالمغرب لهذه
العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها ،
استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة ، وتكلم على المفردات والجمل ،
وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسماه بالمغنى في الإعراب ،
فوقفنا منه على علم جم ، يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها ،
وكأنه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جنى »^(٢) .
نكتفى بما ذكره ابن خلدون عن ابن هشام ، ولا بأس أن نختم حديثنا عنه
برثاء ابن نباتة :

سقى ابن هشام في الشرى نوؤ رحمةً يجرُّ على مشواه ذيلَ غَمَامِ
سأروى له من سائر المدح سيرةً فمازلتُ أروى سيرةَ ابنِ هشامِ^(٣)

اللغة والمعاجم

عاصر اللغوى المعروف ابن منظور^(٤) الإفريقي ابن نباتة ، وقد ألف
أعظم موسوعة لغوية في اللغة العربية ، هي معجمه المشهور لسان العرب ، جمع فيه
الصحاح للجوهري ، وحاشيته لابن برى ، والتهديب للأزهري ، والمحكم لابن
سيده ، والجمهرة لابن دريد ، والنهاية لابن الأثير ، وهو في خمسة عشر مجلداً ،
ويعد بحق موسوعة جامعة في اللغة والأدب تدلنا على اتساع الثقافة العامة في
هذا العصر الذى نؤرخه .

(١) حن المحاضرة ج ١ ص ٢٣١ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٧ .

(٣) تورية بعبد الملك بن هشام صاحب السيرة . الديوان ٤٦٦ ، وهامش المغنى ص ٢ .

(٤) جمال الدين محمد بن مكرم ولد سنة ٦٣٠ هـ وتوفى ٧١١ هـ . حسن المحاضرة ج ١

نذكر - بالإضافة إلى لسان العرب - معجم المصباح المنير لمؤلفه المقرئ الفيومي (المتوفى سنة ٨٧٧٠هـ) ، ومنظومة «الإعلام بمثلث الكلام» ، وهي أرجوزة في ثلاثة آلاف بيت لابن مالك ، ذكر فيها الألفاظ التي تختلف معانيها باختلاف حركات حروفها^(١).

فنون البلاغة

يتميز هذا العصر الزاهر أن علماء البلاغة تعمقوا بأبحاثهم البلاغية ، فلم يتركوا بعدهم مجالاً للباحث . يحسن أن نذكر أن عبد القاهر الجرجاني (المتوفى سنة ٥٤٧١هـ) وصل بعلوم البلاغة إلى الذروة في كتابه «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز» ، فلما جاء السكاكي (المتوفى سنة ٦٢٦هـ) وضع كتابه المشهور «مفتاح العلوم» ، وأصبح هذا الكتاب المحور الذي يدور عليه التأليف البلاغي لهذا العصر ، قام جلال الدين القزويني (المتوفى سنة ٧٣٩هـ) فوضع كتابه «تلخيص المفتاح» ، لخص فيه كتاب مفتاح العلوم ، ووضع كتاباً ثانياً ، شرح فيه تلخيصه السابق ، وسماه «الإيضاح» .

سلك البلاغيون نهج الجرجاني والسكاكي والقزويني ، لكنهم انصرفوا نحو البديع انصرفاً كبيراً ، وليس من قبيل المصادفة أن يقول ابن حجة في خزائنه : «إن لكل زمان بديعاً ، تمتع بلذة الجديد»^(٢) ، وفي الحقيقة كان هذا العصر عصر البديع .

لا بأس أن نعود إلى الوراء قليلاً لنسجل لابن المعتز (المتوفى سنة ٢٩٧هـ) الفضل في تخصيص البديع من علوم البلاغة ، فجعلها في سفر مستقل ، وجمع فيه سبعة من أنواعه ، عاصر ابن المعتز قدامة بن جعفر (المتوفى سنة ٣٣٧هـ) ، فجمع في كتابه «نقد قدامة» عشرين نوعاً منها ، وجاء بعده قدامة بن جعفر (المتوفى سنة ٣٣٧هـ) ، فجمع في كتابه «نقد قدامة» عشرين نوعاً منها ،

(١) عصر سلاطين المماليك ج ٣ ص ١٥٧ .

(٢) خزانة الأدب ص ٥ .

وجاء بعده أبو هلال العسكري صاحب الصناعتين (المتوفى سنة ٥٣٩٥هـ) ، فجمع منها سبعة وثلاثين نوعاً ، وجاء بعده ابن رشيق القيرواني (المتوفى سنة ٥٤٥١هـ) ، فجمع مثلها في كتابه «العمدة» ، وجاء التيفاشي بعده ، فجعلها سبعين نوعاً.....

هكذا ازدادت الأنواع البديعية تدريجياً ، وجاء الشعراء ينظمون البديعيات وهي قصائد في مدح النبي (صلى الله عليه وسلم) بحرها البسيط ، ورويا الميم ؛ ولعل سبب اختيارهم لحرف الميم هو اقتداؤهم بالبوصيري في برده المشهورة ، نذكر من هؤلاء الشعراء أصحاب البديعيات الصفي الحلبي (المتوفى سنة ٥٧٥٠هـ) صديق ابن نباتة الحميم ، وقد نظم بديعته ، فجمع فيها من أنواع البديع مائة وأربعين نوعاً فقط . سار كثير من الشعراء على هذا المنوال ، وأصبح فن البديعيات مظهراً من مظاهر الشعر في هذا العصر . وكانت خزنة الأدب لابن حجة الحموي ثمرة عصر البديعيات .

لم يقف الأمر عند البديع فحسب ، بل تعداه إلى التخصص في بعض فنونه ؟ والجدير بالذكر أن أديبنا ابن نباتة أهتم بالتورية ، ويكفي أن نشير إلى أن مدرسة التورية ، أو مدرسة السحر الحلال - كما يجلولى أن أدعوها مع ابن حجة - هي التي لعبت دورها في شعر هذا العصر .

وقد ظهرت حركة أدبية بسبب هذا الأمر بين الصفدي المولع بفن الجناس وبين أستاذه ابن نباتة صاحب المدرسة الرمزية ، مدرسة السحر الحلال ، وسنعرض لهذه الحركة المباركة في مكانها من هذا البحث .

ألف الأدباء المعاصرون في هذه الفنون البديعية كثيراً من المؤلفات ، نذكر منها : «فض الختام في التورية والاستخدام» و«جنان الجناس» للصفدي ، و«كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام» لابن حجة الحموي ، و«رائق التحلية في فائق التورية» لابن خاتمة .

نكتفي بهذا القدر من حديث البلاغة وبديعها وسنعود لبحثها عند دراسة شعر ابن نباتة ، فنجلي خصائصها ، ونهتك أستارها ، لعلنا نستطيع أن نبرز هذا العصر البديع في زمن البلاغة والبديع .

العروض والقوافي

أما العروض والقوافي فقد أسهم أدباء العصر في التأليف حوله ، نذكر كتاب «العروض» لابن مالك النحوي ، و«القوافي» لبدر الدين الهماميني (المتوفى سنة ٨٢٧) ، و«شفاء الغليل في علم الخليل» لأمين الدين المحلى (المتوفى سنة ٨٦٧٣) وغير ذلك من المؤلفات العروضية .

هذه لمحة خاطفة عن علوم اللغة العربية ، عرضنا فيها بشكل عام لكل مظاهر نشاطها ، ولعلنا استطعنا أن نلمح من خلالها النهضة المباركة التي شملت معها العلوم التاريخية والاجتماعية .

٣

العلوم التاريخية والاجتماعية

ازدهرت الدراسات التاريخية ، ونضجت العلوم الاجتماعية ، وألفت الكتب الكثيرة لدراسة البلدان والأقاليم والظواهر الطبيعية المختلفة .

الدراسات التاريخية

أما التاريخ فقد شهدت مصر والشام أعظم الاهتمام بدراسته ، ولا نعرف في التاريخ الإسلامي عصرأكثر فيه التأليف في هذا الموضوع كما نراه الآن من دراسات تاريخية دقيقة تتناول حتى الحوادث اليومية بحسب الأيام والأعوام . ولم يقتصر الأمر على هذه الدقة ، بل تعداه إلى تنوع في مختلف الدراسات التاريخية ، فمنهم من اقتصرت بتاريخ تراجم الأعلام ، نذكر منهم ابن خلكان (المتوفى ٨٦٧) في كتابه «وفيات الأعيان» . وقد احتوى على ثلثمائة ترجمة ، تضم تراجم بعض معاصريه من رجال القرن السابع الهجري . وجاء بعده ابن شاکر الکتبی (المتوفى سنة ٨٧٦٤) فوضع تاريخاً متمماً ،

سماه « فوات الوفيات » ، يحتوى على تراجم رجال القرن الثامن ، وجاء بعده صلاح الدين الصفدى (المتوفى سنة ٥٧٦٤هـ) ، فاقتدى بهما فى كتابه « الوافى بالوفيات » .

هذا مثال أوردته فى ذكر تراجم الأعلام ، نستدل منه على تكاتف المؤرخين فى عملهم ، فكل يتم ما فعله سابقوه ، ويعد بحق هذا خير صفة مميزة من صفات التعاون العلمى فى الدراسات العالية لدى أبناء هذا العصر .

ومن المؤرخين أيضاً من اختص بدراسة أقاليم معينة أو مدن معينة ، نشير إلى القطب الحلبى (المتوفى سنة ٥٧٣٥هـ) فى كتابه « تاريخ مصر » ، ولأبى شامة (المتوفى سنة ٥٦٦٥هـ) فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين » ، وللمقرئى (المتوفى سنة ٥٨٤٥هـ) فى « خططه » و« سلوكه » ، ولابن تغرى بردى (المتوفى سنة ٥٨٤٥هـ) فى « نجومه الزاهرة » وغير هؤلاء كثير .

ومن المؤرخين من كتب فى التاريخ العالم نشير منهم إلى الملك المؤيد أبى الفداء (المتوفى سنة ٥٧٣٢هـ) فى كتابه « المختصر فى أخبار البشر » ، ولابن كثير (المتوفى سنة ٥٧٧٤هـ) فى كتابه « البداية والنهاية » ، ولابن خلدون (المتوفى سنة ٥٨٠٨هـ) فى كتابه « العبر » .

الدراسات الاجتماعية

يحسن بنا أن نشير إلى الدراسات الاجتماعية التى سبق بها ابن خلدون علماء الاجتماع المحدثين . والجدير بالذكر أن مقدمته الهامة احتوت على كثير من النظريات الاجتماعية التى تنسب إلى غيره من علماء الاجتماع المحدثين الذين جاءوا بعده بزمن مديد .

علم الأقاليم وتقويم البلدان

لا بد لنا ، ونحن فى ختام الدراسات التاريخية والاجتماعية ، من الإشارة إلى علم الأقاليم وتقويم البلدان ، إذ نشط فى هذا العصر مثل هذه الدراسات ،

وتنوه بشكل خاص بأبي الفداء صاحب كتاب «تقويم البلدان» وهو كتاب فريد في نوعه ، لأن مؤلفه يتناول في بحثه الجغرافية العامة ، ويصف الأرض والأقاليم ، ويتحدث عن خطوط العرض والطول .

كما نشير أيضاً إلى كتاب آخر لشهاب الدين بن فضل الله (المتوفى سنة ٥٧٤٨هـ) يتعلق بدراسة البلدان والأمصار ، وهو كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» يعد موسوعة جغرافية عامة في أكثر من عشرين جزءاً ، وقد ذكر في الجزء الأول أن الشيخ أبا الثناء محمود بن أبي القاسم الأصفهاني (المتوفى سنة ٥٧٤٩هـ) ، نزىل مصر تنبأ بوجود القارة الأمريكية قبل أن يكتشفها كريستوف كولومبس بقرن ونصف القرن تقريباً . يقر ابن فضل الله : « لا أمتنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفاً من الجهة الأخرى ، وإذا لم أمتنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة ، لا أمتنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا أو من أنواع وأجناس أخرى» (١) .

نخلص من هذه الدراسات إلى القول إن العلماء بلغوا مرحلة عظيمة من التقدم ، ويكفيهم أنهم وضعوا أسس علم الاجتماع الحديث على يد ابن خلدون وأنهم عرفوا أمريكا قبل أن يعرفها الغربيون . وفي هذا أكبر دلالة على ما يمتاز به هذا العصر من نضج وازدهار وعمران .

٤

العلوم العقلية والعملية

لم تنل العلوم العقلية إلا نصيباً ضئيلاً من العناية ، ولعل الطب هو العلم العملي الوحيد الذي كان الاهتمام منصباً عليه لما له من علاقة وثيقة بحياة الناس ، وسبق لنا أن ذكرنا تأسيس المارستان المنصوري بجانب المدرسة المنصورية .

(١) مسالك الأبصار ، ص ٣١ .

وبدئاً فيه بتدريس الطب وقد قسم إلى أقسام خاصة بحسب الأمراض التي تعالج فيه . أشهر الأطباء ابن النفيس ^(١) شيخ الطب للديار المصرية ، وشمس الدين محمد مدرس الطب بجامعة ابن طولون ، وابن صغير ^(٢) أعجوبة الدهر في هذا الفن ، وقد انتهت إليه رئاسة الطب بمصر ، وشمس الدين المصري ^(٣) مدرس الأطباء بجامعة ابن طولون .

لم يقتصر الأمر على الأطباء ، بل توجه الاهتمام نحو المهندسين ، فقد كثرت عددهم لحاجة البلاد للرى والبناء ، نذكر منهم مثلاً المعلم شمس الدين الطولوني كبير المهندسين في عهد برقوق .

أما سائر العلوم العقلية الأخرى فيندر أن نجد متخصصاً بها ، بل كان معظمهم يتناول جلّ هذه العلوم بالدراسة ، فلا يقتصر على الإلهيات ، وإنما يتعداها إلى غيرها ، كعلم الهيئة والهندسة والحساب والفلك .

ومن برع في ذلك ابن الشاطر الدمشقي ^(٤) فقد أتقن هذه العلوم كلها ، وحل الزيج ، ففهر في ذلك كل المهارة ، وروى عنه أنه كان يرصد الكواكب ويراقب تحركها بألة رصد بديعة ، صور فيها الأفلاك والكواكب ، يذكر ابن تغرى بردى أن زيجه كان المعول عليه لدى الفلكيين في دمشق والقاهرة ، ذلك لأنه انفرد فيه بمسائل متناثرة لم يسبق إليها .

نشير في ختام حديثنا إلى بعض العلماء ، فنذكر شمس الدين الأصفهاني ^(٥) وقد كان بارعاً في الأصلين والمنطق والجدل ، وألف فيها كتاباً سماه « القواعد » .

(١) علاء الدين على بن أبي الحزم القرشي (المتوفى سنة ٦٨٧ هـ) . حسن المحاضرة ج ١

ص ٢٣٣ .

(٢) علاء الدين بن عبد الواحد بن محمد (المتوفى سنة ٧٩٦ هـ) . المصدر السابق ج ١

ص ٢٣٥ .

(٣) شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصري (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ) .

المصدر السابق .

(٤) على بن إبراهيم المعروف بابن الشاطر (المتوفى سنة ٧٧٧ هـ) . المنهل الصافي (مخطوط)

ج ٢ و ٣٨٢ .

(٥) شمس الدين محمد بن محمود الأصفهاني (المتوفى سنة ٦٢٨ هـ) . حسن المحاضرة ،

ج ١ ص ٢٣٥ .

ومنهم أيضاً الصنى الهندى^(١) ، وقد رحل من الهند وأقام بمصر ودمشق ، وجمع بين الفقه والمنطق وغيرهما من العلوم .

القسم الرابع

الحركة الأدبية

أحاول أن أعرض لهذه الحركة الأدبية المباركة فى نطاق حديثى عن النهضة الفكرية فى هذا العصر ، ولعلى أحسن صنعا لو جليت تيار هذه الحركة المباركة التى عرفها هذا العصر الزاهر ، فنبحث فى الخطابة والكتابة الديوانية بما فيها التوقيع ، ونحتم كلامنا بالتحدث عن المذاهب الشعرية .

الخطابة الدينية

ليس فى الخطابة من جديد نسجله لأبناء هذا العصر ، ونكتفى بالقول هنا : إن الخطابة الدينية قد طبعت بطابع تقليدى واحد . فكانت بعيدة كل البعد عن الابتكار ، ويكفى أن نتصفح كتاب أديبنا ابن نباتة « ديوان خطب جُمعية » لنعرف أن الخطابة حافظت على شكلها الدينى . وقد ألف هذا الكتاب على عدد أسابيع السنة ، ويختص كل أسبوع بإحدى المناسبات الدينية الخاصة فيدور موضوع الخطبة حولها .

٢

الكتابة الديوانية والوجدانية

ازدهرت كتابة الإنشاء الديوانى ، وتطورت بصورة خاصة فى دواوين سلاطين المماليك ، وكانت تدور حول كتابة الرسائل السلطانية وكتابة التوقيع . وقد

(١) صنى الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد (المتوفى سنة ٧٥٠ هـ) . المصدر السابق ج ١

كان ابن نباتة أحد هؤلاء الموقعين في مصر والشام .

أما الرسائل السلطانية فكانت موضوعاتها متعددة ، تكتب باسم الخليفة العباسي ، أو الملك الأيوبي ، أو السلطان المملوكي ، بشأن تقليد الحكم أو تعيين وزير أو أمير أو قاض أو غير ذلك . وطريقة هذه الرسائل هي طريقة القاضي الفاضل (المتوفى سنة ٥٩٦هـ)^(١) . ولا بأس أن نورد نصاً من إنشائه بعثه من مصر إلى الملك العادل بدمشق ، يحثه فيه على قتال الإفرنج ، وهذا نص بعض فقرات منه : « هذه الأوقات ، التي أنتم فيها عرائس الأعمار ، وهذه النفقات التي تجرى على أيديكم مهوور الحور في دار القرار ، وما أسعد من أودع يد الله ما في يديه ، وتلك نعم الله عليه وتوفيقه الذي ما كل من طلبه وصل إليه ، وسواد العجاج في هذه المواقف ، ما سودته الذنوب من الصحائف ، فما أسعد تلك الوقفات ، وما أعود بالطمأنينة تلك الرجعات »^(٢) .

تمتاز الرسائل الديوانية بأسلوب خاص ، فهي تبدأ بالبسملة والحمدلة ، ثم تعرض فيها الموضوعات الخاصة من إنشائها ، ثم تنتهي بالحمد والدعاء . ولعل على أحسن صنعا لو أوردت نصاً آخر ، يوضح ما قلته ، ويكون من الكتابة الديوانية في عصر سلاطين المماليك .

أما هذا النص الآخر فهو من إنشاء القاضي فخر الدين بن لقمان صاحب ديوان الإنشاء ، وقد صعد على المنبر بعد ما جلل بثوب حرير أطلس أصفر ، فقرأ تقليد الخليفة العباسي للظاهر يبيرس سنة ٦٥٩ هـ ، ونصه بعد البسملة والحمدلة :

« وبعد فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره ، وأحقهم أن يصبح القلم راعياً وساجداً في تسطير مناقبه وبره ، من سعى فأضحى بسعيه الحميد متقدماً ، ودعا إلى طاعته فأجاب من كان منجداً ومتهماً ، وما بدت يد من المكرومات إلا كان لها زناداً ومعصماً ، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه ناراً وأجراه دماً . ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولى السلطان الملكي

(١) البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٤ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٤٥٢ - ٤٥٤ .

الظاهر الركني شرفه الله وأعلاه ، ذكره الديوان العزيز النبوي الإمامي المستنصرى أعز الله سلطانه ، تنويهاً بشريف قدره ، واعترافاً بصنعه الذى تنفذ العبارة المسببة ولا تقوم بشكره ، وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، وأذهبت ما كان من محاسن وإحسان ، وأعقب دهرها المسمى لها فأعتب ، وأرضى عنها زمنها ، وقد كان صال عليها صولة مغضب وأمير المؤمنين يشكر الصنائع ، ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع ، وقد قللك الديار المصرية والبلاد الشامية ، والديار البكرية والحجازية واينمية والفراية ، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً ، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فرداً»^(١) .

يدلنا هذا النص الهام الذى بين يدينا على طريقة الكتابة الديوانية ، وهى كما نرى - تهتدى بهدى القاضى الفاضل من تسجيع وتنسيق فى أفكار التقليد وأسلوبه ، لكن مراعاة هذه الأمور لم تكن لتفقد النص أهميته ، بل كان هذا أسلوب العصر ، ولكل عصر أسلوب .

إلى جانب هذه الكتابة الديوانية مظهر آخر من مظاهر الكتابات الإخوانية والوجدانية . وتمننا هذه الكتابات لأنها التعبير الحقيقى عن أعماق النفس الإنسانية نشير منها إلى القاضى الفاضل فى كتاب بعث به إلى ابن الزكى ، يصف له غضب الطبيعة وخوف الناس وقيامهم للصلاة يبتهلون إلى الله أن يفرج الغمة ، ويكشف الكربة . يقول القاضى الفاضل : « أتى عارض فيه ظلمات متكاثفة ، وبروق خاطفة ، ورياح عاصفة ، فقوى الجوبها ، واشتد هبرها .. ثارت السماء والأرض عجاجاً ، حتى قيل إن هذه على هذه قد انطبقت ، ولا يحسب إلا أن جهنم قد سال منها واد ، وعدا منها عاد ، وزاد عصف الريح إلى أن أطفأ سرج النجوم ، ومزقت أديم السماء ومحت ما فوقه من الرقوم ، فكنا كما قال تعالى : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق » ، ويردون أيديهم على أعينهم من البوارق ، لا عاصم لخطف الأبصار ، ولا ملجأ من الخطب إلا معاقل الاستغفار ،

وفرّ النامس نساء ورجالا وأطفالا ، ونفروا من دورهم خفافاً وثقالا ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فاعتصموا بالمساجد الجامعة ، وأذعنوا للنازلة بأعناق خاضعة ، ووجوه عاتية ، ونفوس عن الأهل والحال سالية...»^(١) .

أكتفى بهذا القدر مما اخترته من رسالة القاضي الفاضل ، وهي تمتاز - بالإضافة إلى صفات أسلوبه المميزة - بالفكرة الإصلاحية . فذكر فيها معاقل الاستغفار ، وكأنما يشير إلى ما ذكرناه من مفاصد خلال دراستنا الحياة الاجتماعية .

كان معظم المنشئين يهتمون بالكتابات الإخوانية الوجدانية ، وقد كانت الكتابات الديوانية حلبة سباق ، يتبارى فيها الكلبة والمنشئون ، فكثرت فيها المؤلفات ، إذ روى أن مسودات رسائل القاضي الفاضل لو جمعت لبلغت مائة مجلدة^(٢) .

أصبح للكتابات الديوانية أسلوبها الخاص^(٣) ، وبدلنا هذا على مبلغ تقدمها واطرادها ، ويكفي أن أشير إلى كتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» الذي ألفه القلقشندي لتعرف التطور الكبير الذي طرأ على كتابة الإنشاء في هذا العصر .

٣

المدارس الشعرية المعاصرة

لعل تطور الحياة وتقدمها في هذا العصر قد أفسح المجال أمام الشعر ، ليتطور بدوره . ويتعقد بعد أن لبث في ثوبه التقليدي حيناً من الدهر . وكأنما أراد أن ينطلق من ربة القافية التي أخذت بخنقه وشدت وثاقه ، فما استطاع

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٣ . (٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٢ .

(٣) صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٠ .

منها الإفلات . لكنه ما كاد يتنسم حريره ، حتى ضل وأوشك أن يتعثر بما استحدثه من مذاهب شعرية جديدة أن نقف حيا لها لتعرف طيبها من خبيثها .

مدرسة الأغراض التقليدية

كانت قافلة هذه المدرسة تسير في طريقها المهود لا يضمنها الكلل ولا يجهدا السأم والملل ، فلهيكل العام مازال معداً لدى الشعراء ، ولا يستطيعون أن يخلوا بعمود الشعر العربي ، لذلك نجد الشعراء العرب بالمشرق قد حافظوا - في معظم الأحيان - على ما ورثوه من إرث شعري خالد . أما الشعوب الأخرى في المغرب والأندلس فقد حاولت أن تتحرر من هاتيك القيود . فكان بدء ثورة تحررية في الشعر العربي ، على أننا قد نتساءل ما مدى النجاح الذي أحرزته في هذا الإفلات من ضروب الوزن حيناً والقافية حيناً آخراً وإهمال أمور النحو في كثير من الأحيان .

نترك هذا الأمر لتحدث عنه في مكانه من هذا البحث . ونقتصر على القول هنا : إن الشعر التقليدي حافظ لدى معظم الشعراء على طابعه الأصلي وهو الكلام الموزون المقفى ، لكن بعض معانيه قد تطورت مع الزمن لتباين الأحوال وتفاوت الأقاليم .

يحسن بنا أن نشير هنا إلى المدائح النبوية التي كانت من الأغراض الجديدة المستحدثة في هذا العصر ، وهي فن قائم بذاته ، ظهر في أواخر العصر الأيوبي وأوائل عصر المماليك . ولا بد لظهوره من عوامل ساعدت على نموه وازدهاره .

• • •

لعل الحياة الاجتماعية السائدة ، وما فيها من فقر وحرمان ، كانت من العوامل التي أدت إلى ظهوره ، يضاف إلى ذلك الوضع الاقتصادي السيء الذي كانت الأقاليم ترزح تحت وقره ، واضطراب الحياة السياسية في معظم الأحيان بسبب النزاع بين السلاطين والأمراء ، أو وقوع خطر من قبل الأعداء في الشرق والغرب .

هذا مع ما كان يحدث من كوارث طبيعية تحل بالبلاذ ، فيهرع الناس إلى معقل الاستغفار يتوبون إلى الله ، ويتشفعون بالرسول الكريم .

أدت هذه العوامل إلى لون من ألوان التوكل والاستسلام الكلي لما تأتي به المقادير . والحدير بالذكر هنا أن الناس بدأوا منذ العصر الفاطمي يتشفعون بالنبي ، ويهرعون إلى أئمة الفاطميين ودعاتهم ، فلما جاء العصر الأيوبي اقتصر الناس على اللجوء إلى الرسول ، يتوسلون إليه كى يفرج عنهم الكرب ، ويكشف عنهم الغمة . حاول الخلفاء الفاطميون وسلاطين الأيوبيين والمماليك بدوزهم أن يشاركوا الناس في هذا الاتجاه الديني ، فاهتموا بالحج ، واتخذوا له طريقاً جديداً ، يمر بالصعيد على طريق النيل ، ومنها إلى ثغر عيذاب ، فبالبحر الأحمر ، ويعودون بعد ذلك من الطريق نفسه ، لقد سلكوا هذا السبيل بعد أن هدد الصليبيون مراراً طريق العقبة وبرزخ سيناء . لم يكتف المماليك بذلك ، بل ظهرت المحامل ، وما يرافقتها من احتفالات دينية في الذهاب والإياب . كل ذلك كان يضفي على الحج طابعاً ساحراً ، أخذ بأفئدة الشعراء ، فنظموا شعراً يفيض بالأحاسيس الوجدانية الصادقة التي تصور خير تصوير نفسية هذا الشعب المؤمن .

يجب ألا يغيب عن أذهاننا التصوف وما له من أثر فعال في نشوء المدائح النبوية . ولعل قوة هذا الفن ناتجة عما نسج حول البردة النبوية من حكايات وأساطير .

أحب أن أقف عند الوزير « بهاء الدين بن يوحنا » الذي تولى منصب الوزارة في عهد الظاهر بيبرس سنة ٥٦٩ هـ ، وقد اشترى هذا الوزير مكان الآثار النبوية المطل على بحر النيل ، واشترى أيضاً الآثار الشريفة بجملة كبيرة من المال ، وأودعها في ذلك المكان^(١) ، ولعل البردة النبوية من جملة هذه الآثار .

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ٩٩ .

توافد الناس زرافات ووحداً على هذا المكان النبوي المقدس الذي أنشأه الوزير بهاء الدين ، فقد روى عنه أنه اهتم كثيراً بأمر هذه البردة .

هذه العوامل أدت إلى ازدهار المدائح النبوية ، ويكنى أن تشير إلى صاحب البردة البوصيري للدلالة على ما كان لهذا الأثر النبوي الخالد من دافع للشعراء على نظم هذه المدائح ، بل إن بعضهم سخر حتى علم البديع في نظم البديعيات ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً .

أما ابن نباتة فكان أشد هؤلاء الشعراء الذين كانوا يلوذون بالمدائح المذكورة كلما اشتدت عليهم الحياة ، فكان يجد التشفع بالنبي خير ملاذ ، ينسيه آلامه وأشجانه .

ترك هذه المدائح جانباً لتتحدث عن سائر الأغراض الأخرى التي استحدثت أو تطورت ، فنشير منها إلى النسب والغزل والخمرة . ونقرر هنا أن المعاني لم تحتفظ بطابعها التقليدي ، بل أخذت معاني الغزل تنصب حول وصف النساء التركيات والتحدث عن عيونهن الضيقة ، مما لم نعهده في الشعر العربي من قبل ، ويظهر لنا ذلك في شعر ابن نباتة . كما أن الحديث لم يكن مقصوراً على وصف الخمر والتغنى بذكرها ، بل تعداها إلى غرض حديث خبيث ، هو الاستعاضة بالحشيش عنها ، وتمضي له عليها في معظم الأحيان ، وسبق لنا أن عرضنا لذلك في حديثنا عن المتصوفة وعن حشيشهم المعروفة بحشيشة الفقراء .

لم يكن التطور الشعري مقتصرًا على الأغراض ، بل تعداها إلى الأساليب واستخدام البديع بصورة لم نعهد لها مثيلاً في شعرنا العربي من قبل ، ولم يقتصر الأمر على البديع نفسه ، بل تجاوزته إلى التوريات ، فاقصر عليها من هذا الفن وحده ، ولهذا فنحن ستقدم الآن على بحث هذا المذهب الرمزي الجديد ، وهو بحق المذهب السائد في هذا العصر بعد طغيان مذهب التطبيق والتجنيس في القرن السادس الهجري .

مدرسة التورية البديعية

لعل ظهور هذه المدرسة يرجع لأسباب دينية ، تتعلق بتأويل المشتبهات من كلام الله تعالى وحديث رسوله الكريم وصحابته الكرام ، وهذا يؤيد الرأي القائل بأثر المذاهب الدينية ، وأثر العقل والمنطق في ظهور هذه المدرسة البلاغية الجديدة التي تطورت إلى المذهب الرمزي .

قال الزمخشري : « ولا نرى باباً في البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المشتبهات »^(١) .

كان القدماء لا يابهون للتورية إلا إن وقعت لهم عفواً ، نشير من هؤلاء إلى النابغة وعمرو بن كلثوم وعنترة ، ونقف قليلاً عند شعراء العصور العباسية كأبي نواس والبحتري ، ونحط الرجال عند أبي العلاء ، إذ استخدموا التورية بكثرة ، وعقدوا فيها ، لكنهم لم يتخذوها مذهباً خاصاً بذاته .

أما في هذا العصر فقد اتخذها الشعراء مذهباً شعرياً خاصاً وأصبح هذا المذهب السحر الحلال الذي يجب أن يتحلى به كل شاعر ، وإلا عدّ مقصراً عن أقرانه .

يمكننا أن نجد في هذه المدرسة مذهبين ، ظهر المذهب الأول في مصر على يد القاضي الفاضل ، وظهر المذهب الثاني في بلاد الشام على يد شيخ الشيوخ صاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصاري .

المذهب المصري

كان القاضي الفاضل قطباً من أقطاب مدرسة الكتاب الفاطميين ، لكنه استقل عن هذه المدرسة ، وبدأ مدرسة خاصة ، قصرت همها على الإكثار في الشعر والنثر من التورية والجناس . وقد قال ابن حجة إن القاضي الفاضل

(١) خزنة الأدب ص ٢٤٠ .

عصر سلافة التورية لأهل عصره ، وتقدم على المتقدمين بما أودعه منها في نظمه ونثره^(١) أما رواد هذه المدرسة من الشعراء فنشير منهم إلى القاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك^(٢) ، والأسعد بن ممان^(٣) ناظر دواوين صلاح الدين ، والسراج الوراق^(٤) ، وأبي الحسين الجزار^(٥) . ومحبي الدين بن عبد الظاهر^(٦) وغيرهم من شعراء المذهب المصري في التورية .

استخدم هؤلاء الشعراء صناعاتهم وألقابهم في تورياتهم ، وقد أورد ابن حجة كثيراً منها ، يؤيد ما أذهب إليه أنه قيل يوماً للسراج الوراق : « لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك »^(٧) .

تطورت التورية على يد ابن نباتة المصري ، لأنه حاول أن ينشئ مذهباً جديداً ، يجمع فيه شمل المذهبيين المصري والشامى .

• • •

المذهب الشامى

ظهرت مدرسة التورية أيضاً في بلاد الشام . وكان رائد المذهب الشامى شيخ الشيوخ صاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى^(٨) ، وقد قال

(١) الخزانة ص ٢٤٠ .

(٢) أبو القاسم هبة الله بن الرشيد جعفر بن سناء الملك (المتوفى سنة ٥٥٠ هـ) . حسن

المحاضرة ج ١ ص ٢٤٣ .

(٣) الأسعد بن الخطير مهذب بن ممان المصرى (المتوفى سنة ٦١٦ هـ) . حسن المحاضرة ج ١

ص ٢٤٢ .

(٤) السراج الوراق (المتوفى سنة ٦٩٥ هـ) .

(٥) جمال الدين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد (المتوفى سنة ٦٧٩ هـ) . حسن

المحاضرة ج ١ ص ٢٤٤ .

(٦) محبي الدين عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان (المتوفى سنة ٦٦٢ هـ) . حسن المحاضرة

ج ١ ص ٢٤٥ ، والبداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٣٤ .

(٧) الخزانة ص ٢٤٤ .

(٨) شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصارى (المتوفى سنة ٦٦٢ هـ) .

انظر ترجمته المفصلة في كتابنا « الأدب في بلاد الشام » ص ٣٢٣ - ٣٥٥ .

فيه صلاح الدين الصفدى : « لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ، ولا أجزل ، ولا أفصح ، ولا أسرى ، فإن له في لزوم ما لا يلزم مجلداً كبيراً وما رأيت له شيئاً إلا وعلقتة ، لما فيه من النكت والتوريات الفائقة »^(١).

كما أعجب به ابن حجة فقال : « انتهى ما أوردته من الحلاوات القاهرية ، وقد تعين أن أفكه المتأمل بعد ذلك بالفواكه الشامية ، واقتطف له من فروع شيخ الشيوخ ما يظهر به مزية الثمرات الحموية ، وقدرة السلطنة في الأدب وناهيك بالسلطنة الشيخية ، فاخترت من أبيات قصائده ومواصيل مقاطيعه ما يحلو بها التشبيب ، وسميته زاوية شيخ الشيوخ علماً بأنها زاوية يتأهل بها الغريب »^(٢).

خلف الأنصارى القاضى الفاضل ، وكان كل منهما يمثل مذهب التورية في بيئته ، ولكل من المذهبيين صفات متميزة خاصة أخذ بها شعراؤها نشير منهم إلى الأمير مجير الدين بن تميم^(٣) ، وبدر الدين بن لؤلؤ الذهبي^(٤) ، ومحبي الدين بن قرناص الحموى ، وشمس الدين بن العفيف^(٥) الملقب بالشاب الظريف ، وسيف الدين بن^(٦) المشد ، والوداعي^(٧) من رواد هذا المذهب الشامى .

عاصر ابن نباتة أقطاب هذه المدرسة عندما ألقى عصا الترحال في بلاد الشام ، وكان الشاعر الأكبر الذى أنشأ مذهباً رمزياً يجمع مميزات المذهبيين اللذين أتينا على ذكرهما بإيجاز ، فقد تذوق الحلاوات القاهرية ، واقتطف الفواكه الشامية وموعدنا معه في بحث شعره .

(١) تاريخ حماة ص ١٣٣ . (٢) خزنة الأدب ص ٣١٤ .

(٣) مجير الدين بن تميم (المتوفى ٦٨١ هـ) الخزنة ص ٢٧٦ .

(٤) بدر الدين بن لؤلؤ الذهبي (المتوفى سنة ٦٨٠ هـ) الخزنة ص ٢٧٦ .

(٥) الشاب الظريف شمس الدين بن العفيف (المتوفى سنة ٦٨٧ هـ) .

(٦) سيف الدين بن المشد (المتوفى سنة ٦٥٥ هـ) .

(٧) على بن المظفر الكندى المشهور بالوداعي (المتوفى سنة ٧١٦ هـ) .

مدرسة الفكاهة والمجون والتحامق

ظهرت طلائع هذه المدرسة الفريدة في نوعها منذ وقت مبكر ، وأول ما وصلنا من شعرها، يعود لأبي الرقعمق^(١) صاحب المجون والنوادر ، وقد وفد إلى مصر ومدح العزيز بالله يعقوب بن كلس ، والأمير تيمناً وغيرهم .

ومن شعرها أيضاً صريع الدلاء^(٢) ، ويلقب بقتيل الغواني ، وهو شاعر مشهور له مقصورة في الهزل عارض بها مقصورة ابن دريد إذ يقول، فيها :

وَأَلْفُ حَمَلٍ مِنْ مَتَاعِ تَسْتَرٍ^(٣) أَنْفَعُ لِلْمَسْكِينِ مِنْ لَقِطَةِ النَّوَى
مَنْ طَبَخَ الدِيكَ وَلَا يَذْبَحُهُ طَارَ مِنَ الْقِدْرَةِ مِنْ حَيْثُ انْتَهَى
مَنْ أَدْخَلَتْ فِي عَيْنِهِ مَسَلَةً فَسَلَهُ مِنْ سَاعَتِهِ : كَيْفَ الْعَمَى ؟
وَالذَّقْنَ شَعْرًا فِي الْوَجْهِ طَالِعٌ كَذَلِكَ الْعَقْصَةُ مِنْ خَلْفِ الْقَفَا
وختمها بهذا البيت الطريف :

مَنْ فَاتَهُ الْعِلْمُ وَأَخْطَاهُ الْغِنَى فَذَلِكَ وَالْكَلْبُ عَلَى حَدِّ سَوَا

قدم هذا الشاعر إلى مصر ، ومدح صاحبها .

أما هدف هذه المدرسة فإنها ترى أن الشعر يجب أن تكون غايته الإمتاع والإضحاك . ففي سبيل ذلك تعتمد لقدامى شعراء الجاهلية والإسلام ، فتعارض عيون قصائدهم ، وتحرفها ، وتبدل بعض ألفاظها بحيث تصبح مضحكة مملوءة بالطرفة والفكاهة . كما كانت هذه المدرسة تستخدم الألفاظ البذيئة ولا تتورع عن ذكر أسماء الأعضاء الجنسية وما يدور حولها ، وقد ظهر هذا

(١) أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي (المتوفى سنة ٣٩٩ هـ) . حسن المحاضرة

ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) أبو الحسن علي بن عبد الواحد البغدادي (المتوفى سنة ٤١٢ هـ) . المصدر السابق .

(٣) تستر : بالضم ثم السكون وفتح التاء الأخرى ، وهي أعظم مدينة بخوزستان .

التطور في هذا العصر وبخاصة في شعر ابن حجاج الذي كان نسيج وحده في هذا الباب الغريب ، وقد قال ابن نباتة : إن أشعاره أمة غريبة تبعث وحدها . وسوف نعرض لهذا الأمر خلال دراسته ، لأنه جمع له قسماً كبيراً من شعره في مجموعة خاصة أسماها (تلطيف المزاج من شعر ابن حجاج) ، ولو تصفحنا ما جاء من مقطوعات شعرية في باب الفكاهة والمجون عند ابن نباتة لرأينا أنه يجارى ابن حجاج في هذا المضمار الفريد ، وقد يتفوق عليه في بعض المقطوعات التي أضفت عليها الروح المصرية والفكاهة القاهرية طابعاً مميزاً فريداً ، قلّ أن نجد له نظيراً ، إذ كان لا يتحرج من التحدث عن الأعضاء الجنسية بأسلوب طريف مطبوع بالطابع الداني .

استمرت هذه المدرسة حتى عصرنا الحاضر ، ومن شعرائها مصطفى حمام ، وسبب بقائها أنها تمثل جانباً هاماً من نفسية الشعب المصري المقطور على حب الفكاهة والنكتة .

مدرسة الفنون الشعبية المستحدثة

اخترع الأندلسيون الموشحات ، وقد ازدهرت على يد عبادة القزاز (المتوفى سنة ٥٤٣٣هـ) ، فانتقلت إلى المشرق ، ولقيت فيه رواجاً كبيراً ، فألف القاضي السعيد ابن سناء الملك « دار الطراز » ، وقد شرح فيه طريقة الموشحات ، وأورد بعد هذه المقدمة موشحاته التي كانت السبيل لمن جاء بعده من الوشاحين . وقد عرفنا أيضاً الموشحات لدى ابن نباتة ، وسنعرض لها بالشرح في حديثنا عن شعره .

أما الزجل فقد نشأ أيضاً بالأندلس ، والفضل في اختراعه إنما يعود للشعب الذي أراد من ذلك تقليد فن الموشحات بلغته العادية التي لا تمسك بقواعد اللغة والإعراب . وضع لنا الحلبي الفرق بين الموشح والزجل ، فذكر أن الناس يسمون كل ما أعرب موشحاً ، وكل ما خلا من الإعراب زجلاً ،

وما اشترك فيه الإعراب واللحن مرتباً في أى فن قصد الناظم^(١)

كثرت أوزان الأزجال حتى قيل : « صاحب ألف وزن ليس بزجال » .
وقد انتشر بين شعراء العصر ، نذكر منهم الشيخ علاء الدين بن مقاتل إمام
الزجالين ، وقد كان يفد على الملك المؤيد أبي الفداء ، وله قصة طريفة ، جرت
له في هذا البلاط المؤيدى مع ابن نباتة والصنى الحلى ، سنوردها في مكانها من
هذه الرسالة .

يضاف إلى فن الموشحات والأزجال بعض الفنون الأخرى التى استحدثتها
المولدون كالدوبيت والقوما والكانكان والمواليا وغير ذلك من الفنون الشعبية
الأخرى التى استحدثوها أو ولدوها ، كما هو الحال في فن البلايق
ظهر هذا الفن في مصر والشام ، واشتق اسمه من اسم طائر جميل ،
يدعى في بلاد الشام بأبي بليق ، يجمع ريشه بين اللون الأبيض والأسود .

أورد يوسف المغربي في كتابه (دفع الإصر عن كلام أهل مصر) المعروف
باسم (قاموس العوام) ذكر (البليق) و (البلوق) و (المبلق) و (البلايق) .
كما عرفت في لغة العوام ، وأرجع بعضها إلى أصوله من القاموس المحيط :

« ويقولون : (قطع بليق لا حرث ولا درس) . و (بليق) كزبير : اسم
فرس سباق ، ومع ذلك كان يعاب . قالوا : يجرى بليق ، ويذم بليق .
يضرب في المحسن يذم . انتهى من القاموس . إلا أن أهل مصر في قولهم
(قطع بليق لا حرث ولا درس) لا يريدون الفرس ، ولعله كان اسم ثور يستعمل
في الحراثة ، فحصل منه انقطاع عنهما .

ويقولون في اصطلاح خيال الظل : (البلايق) مفردة (البلوق) كتنور ،
الأرض التى لاتنبت . وموضع قرب كاظمة ، يزعمون أنه من مساكن الجن .
ويقولون : (صدره مكشوف مبلق) . وله أصل . قال : برق كفرح :
تحير ، وكنصر بلوقاً : أسرع . وبلق الباب : فتحه كله أو فتحاً شديداً

(١) العاقل الحال والمرخص الفاعل ، ص ١٠ .

كأبلقه فانبلق وغلقه ، ضد ؛ والجارية افتضها ^(١) .

ويبدو لنا أن أقرب الوجوه هو قوله عن البلاليق عند العامة في اصطلاح خيال الظل ، فاعل هذا النوع من شعر البلاليق كان مستخدماً في الحوار المسرحي آنذاك ، وهو بذلك يوضح جانباً هاماً من أصول هذا الفن الشعري ، ويبرز بعض وجوه تطوره في الأدب الشعبي .

أما وزنه فلا يخرج عن أوزان الزجل المعروفة ، وقد فرق الحلبي بين الزجل والبلليق ، فقال : « وقد قسمه مخترعوها على أربعة أقسام ، يفرق بينها بمضمونها المفهوم ، لا بالأوزان والوزوم ، فلقبوا ما تضمن الغزل والنسب والحمرى والزهرى زجلاً ، وما تضمن المزل والخلاعة والإحماض بليقاً ^(٢) . ولو عدنا إلى البليقة التي نظمها العوام في عهد بيبرس الجاشنكير حين شح ماء النيل ، وكثر الغلاء والتي يطلبون فيها عودة الناصر محمد لعرشه ، لرأينا فيها المزل الذي أشار إليه الحلبي في وصف الشعر البليقي .

أورد كذلك الصفدي في أعيان عصره ذكر بعض أصحاب البلاليق ، نذكر منهم تقي الإسناي الجبائي ^(٣) ، وذكر أنه ضاعت له سكين ، فوجدها مع ابن المصوص الإسناي ، فقال فيه :

إلذكَ قذارى في اللصوص ، يا بنَ المصوص

خنيجري كانَ في الطبقِ

ومنتصر في القولِ صدقِ

وأنتَ أخذتَه بالسبقِ ، لعب الفصوص ^(٤)

(١) دفع الإصر عن كلام أهل مصر ، ل ٣٧ ب و ٣٨ أ . صور هذا المخطوط ، ووضع فهارسه الدكتور عبد السلام أحمد عواد ، وتم نشره مصوراً في موسكو سنة ١٩٦٩ في سلسلة الآداب الشرقية الصادرة عن أكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتي وجامعة لينينغراد الدولية رقم ٢٣ .

(٢) تقي الدين الجبائي عبد الرحيم بن محمد بن عبد الرحيم بن علي (المتوفى سنة ٥٧٥ هـ) .

(٣) أعيان العصر (مخطوط) ج ٣ ق ٢ و ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٤) العاقل الحائلي والمرخص العالي ، ص ١٠ .

كما تحدث ابن تغرى بردى عن العالم الخليج ابن الصاحب ، وذكر أنه « نادرة زمانه فى المجون والمزل ، وإنشاد الأشعار والبلقيات » (١) .

• • •

تلك هى صورة عابرة عن الحياة الفكرية : رسمناها بإيجاز ، وقد دللنا على نمو هذه المعركة المباركة وازدهارها فى مختلف فنونها ، وقد توخينا من عرضها أن نعطى هذا العصر حقه ، بعد أن بنحس زمناً طويلاً بزعمهم أنه عصر عقم وجمود ، وهو بحق عصر إحياء التراث العربى وتجديده وازدهاره .

كما تدلنا دراسة هذا العصر على قيام وحدة شاملة . وحدة سياسية بين الأقاليم العربية وبخاصة منها مصر والشام ، ووحدة فى الحياة الاجتماعية ، ووحدة فى الحياة الفكرية ، وقد دللنا هذه على وحدة الشعوب والأمانى فى هذا العصر الزاهر الذى أنبت لنا ابن نباتة .